## بيانكا بيلوفا

# البُحَيْرَة

ترجمة: خالد البلتاجي

رواية



## جَنين

«نامي» يتصبب عرقًا، يمسك بيد جدته المنتفخة. أمواج البحيرة تلطم بانتظام رصيفًا صخريّا، وصراخ قادم من عند الشاطيء الرملي في المدينة، صراخ ضاجٌّ جدا. من المؤكد أنه يوم الأحد. فهو هنا يجلس فوق الفراش مع جده وجدته. وشخص آخر هنا. يراه «نامي» كثوب سباحة على هيئة ثلاث بقع حمراء، ثلاثة مثلثات لمايوه بكيني، تعلوه حزمة شعر أسود ممشط وكأنه ذيل حصان، وكومتان من شعيرات داكنة اللون أسفل الإبطين. ثلاثة مثلثات تهتز بتكاسل في ضوء الشمس، تتداخل حتى تصير جسمًا واحدًا، وسمكة سُلّور تضرب بذيلها بالقرب من الشاطئ.

تقول الجدة هي تلطم ذبابة حطت على بطنها:

مستوى المياه في البحيرة دُونَ المعتاد.

ثم راحت تلوك في فمها حبات عباد الشمس المُحمّصَة، اشترتها من أحد الأكشاك على الشاطئ، ثم تبصق

القشور أمامها على الرصيف الصخري.

يرد عليها الجد ساخرًا:

ما هذا الهراء؟ يا ويلي من النساء! صداع!

يبتسم الجد، ثم يميل بجسده إلى الخلف، يداه فوق فخديه. يمسك بإحديهمَا بين أصابعه التي سكنتها القذارة، سيجارة بدون فلتر.

تأخذ المثلثات الثلاثة القارورة، ثم تميل على «نامي» لتعطيه شاي بالنعناع.

اشرب يا حبيبي!

إن المثلثات تتحدث. لها صوت عميق ولطيف، مثل بئر ماء قديم كائن خلف بيتهم. يشرب «نامي» الشاي المنعش المُحَلّى بالعسل، فينزلق إلى حلقه دون أي عائق.

يقول جده وهو يسترضيه:

تعال يا حبيبي، كي لا يقول أحدهم عنك بأنك جبان. فكل طفل في الثالثة من عمره عليه أن يتعلم السباحة.

يمرر جده كفه فوق بطنه المستديرة، ثم ينفض رماد السيجارة في الماء، فيصدر حسيسًا. لا يرغب «نامي» في النزول إلى الماء. يريد أن يظل مستلقيًا فوق الفراش، متكئًا على بطن جدته اللينة، يراقب المثلثات الثلاث الملونة. يحاول أن يرفع يده، لكنها تسقط بكسل في حِجْرِه.

تَسْتَحِثّه جدته قائلة:

هيا يا نامي! تعال كي أشتري لكَ مصّاصَة.

التصقت المصاصة بورقة السلوفان، وعجز عن تحريرها منها. نادرًا ما يحصل «نامي» على مصاصة. لا يراها إلا في «يوم السلام»، وكلما زارته المثلثات الثلاثة. طعم المصاصة مثل السكر المحروق. لا يروقه

مذاقها، لكن ندرة المصاصة تدفعه في كل مرة إلى أن يحبها، ويفعل من أجلها كل ما تطلبه.

ينهض «نامي» على مهل، ثم يجد نفسه يطير في الهواء قبل أن يهم واقفًا.

يصيح فيه جده وهو يقهقه:

هيا اسبحي أيتها السمكة!

المثلثات الثلاثة تصيح، وجدتها أيضًا تزعق.يرتطم الماءُ بحنبِ «نامي» فيؤلمه، يشق سطح البحيرة، ثم يسقط في ماء مظلم. يرى من فوقه شمسًا تتلألأ وسط حشد من فقاعات خلّفها وراءه. تاهت منه أنفاسه، وشعر بألم في صدره وهو يسقط في الماء الذي أصبح أبردَ. «نامي» يسقط بجسدٍ متصلب، يداه ترفرفان بمحاذاة جسده. يظن بأنه سيرى بعد قليل «جنيّة البحيرة» التي تسكن قاعها.يزداد الضغط على صدره، وتكاد أذناه أن تنفجرا. يحاول التقاط أنفاسه بطريقة لا إرادية، فيبتلع جرعات من الماء. لم يعد يرى

شيئًا. يحرك يديه وقدميه بكل هياج فيقربه هذا من سطح الماء. صار كل شيء أسودَ لامعًا.

تصيح الجدة بارتياح عندما التقط «نامي» أنفاسه أخيرًا، وأخذ يلفظ بقوة الماء الآسنِ الذي ابتلعه.

أيها الغبي العجوز. يا لك من كهل لعين لا يؤتمن حتى على علبة ديدان.

ماذا دهاكِ! لقد نجح في الأمر، أليس كذلك؟ ألا ترين أنه قد تمكن من السباحة بمفرده؟

أخذ يهدئها الجد بصوت متهدج بعض الشيء، وأضاف:

إنه مقاتل.

صاحت المثلثات الثلاثة من تحت الأرض:

تعال إلى هنا يا حبيبي!

ثم جذبته إليها. صدر ينتفض فوق صدر آخر هائج مثله. يهدأ «نامي»، ويتوقف عن السعال.أسفل

المثلثات الثلاث جلدٌ برونزي اللون دافئ، طيب الرائحة. تضمه المثلثات الثلاثة، وتوزع القبلات في شعره، وتهمس له بشيء. اطمأنَّ قلب «نامي». أخذت شعيرات تلك المرأة تداعب وجهه، وعلا صوتها بالغناء.

صاحت الجدة:

لا تغني له!

انتفض «نامي»، ثم سرعان ما استلقى في هدوء.سكن جسده.تظاهر بأنه ميت، وأنه قد اختفى من الوجود. هدأ صوت الغناء. مع كل زفرة صوت رخيم، وكأنها هزات ترافق صوت جرس توقف قلبه عن النبضِ. كَمْ وَدّ «نامي» أن يطول هذا الأمر إلى الأبد. ينظر خلسة إلى وجه تلك المرأة. لكنه لا يرى سوى مقدمة أنفها، وعظام وجنتيها الناتئة. يفقد «نامي» وعيه وهم عائدون إلى البيت، فيضطر جده إلى حمله.

لم يختاروا العودة عبر الميدان الذي يقف فيه تمثال «الزعيم»، وبه حفرة صنعها الروس لجمع القمامة بها.

لكنهم اختاروا طريقًا جانبيّا، خلف الحي السكني.

كم أنتَ ثقيل، أيها الولد!

تذمر الجد، ثم توقف في مكانه عندما انزلقت قدمه، وبالكاد تمكن من استعادةِ توازنه. في البيت سيحصل «نامي» على مصاصة. سيلعَقُها، غالبًا رغمًا عنه، وهو يتابع المثلثات الثلاثة التي تحولت إلى فستان مزركش أخضرَ مخضّبٍ بزرقةٍ. في المساء سيبدأ «نامي» في التقيؤ بشدة بعد أن انقبضت معدته تمامًا، فلفظت كميات كبيرة من ماء آسنٍ، وشاي بالنعناع، وقطع كعك بجبن الماعز. مرّرَت صاحبة الفستان المزركش يدَها على جبينه، أمسكت رأسه وهو يتقيأ، وجففت فمه، وراحت تهدئ من روعه. فهمست له قائلة:

هووووو، الآن ستكون بخير يا حبيبي.

عندما استيقظ «نامي» في الصباح وجد الفستان الأخضر المخضّبَ بالأزرقِ قد اختفى. وكلما شرب شايا

روسيًّا أسودَ تقيأه على الفور.

ترعرع "نامي" وسط رائحة السمك، فلم ينتبه إليها، ولم يشعر بها كما ينبغي. في مدينة "بوروس" مزرعة لأسماك الحَفَش، يجاورها مباشرة مصنع لتصنيع المنتجات السمكية. تعمل جارته "ألية" في مصنع الأسماك. تأتي أحيانًا وتجلس عند عتبة الباب. تحضر دلوًا من الكافيار لتستبدله بجوال بطاطس. يضطر بعدها "نامي" إلى أن يأكله في فطوره وفي عشاءه، يجلس بجوار الدلو، ويظل يغرف منه بالملعقة إلى أن تثور معدته.

تسأله جدته:

هل أكلت؟

يخفض «نامي» طرفه، ويطيل النظر في أرض الغرفة. فتقول جدته:

فعلت خيرًا، الكافيار من أكثر الأشياء المفيدة للصحة، بعد عشبة الجنسنج.

يضحك الجد من طرف فمه وهو يفرك بإبهامه جانب عينه، ويمسك بسيجارة بدون فلتر بين السبابة والإصبع الوسطى المشوهة:

تفوقه ممارسة الحب فائدة.

فتوبخه الجدة، وهي تضحك هي الأخرى:

ألا تستحي أيها العجوز!

تحمّر رقائق الخبز وتدهنها بالزبدة، ثم تعطيها ل «نامي» وتقول له والابتسامة تعلو وجهها:

أنت تأكل مثل النبلاء.

«نامي» يحب الكافيار، لكنه يعتقد أن هذا ليس كافيا. يتمنى أن يرى أمامه شيئًا أهَمَّ. إلا أنه لا يقدر على التعبير عنه بالقدر الكافي وهو مازال في الرابعة من عمره. يسحق حبات سوداء بين أسنانه، بينما يزيل قشور الجرح الداملة من فوق ركبتيه بذهن شارد.

نتوء كبيرة فوق عُصْعُص جدته، مفصلا حوضها عريضان، عظامهما بارزة، وبطنها طرية ينام عليها «نامي»، تلاطفه راحتاها الجافتان القويتان وهي تمررهما في شعر رأسه، وتحكي له قصصًا خرافية عن «جنيّة البحيرة»، وعن محاربي «الفرقة الذهبية» النيام الذين يسكنون صخرة «كولوس»، ينتظرون أن يأتي المحارب الكبير ليوقظهم.

يسأل «نامي» جدته:

هل سأكون واحدًا منهم؟

تجيبه جدته بابتسامة:

ستكون أيها الصبي.

وكيف سأجدهم؟

ستقودك بصيرتك إليهم أيها الصغير!

يستسلم بعدها الصبي لنوم معسول.

****

إنه يوم الصيد. أعظم أعياد العام. تتجمع المدينة بأكملها في الميدان، حول تمثال «الزعيم»، الأطفال يرتدون أقمصة ناصعة البياض، والصبيان يلبسون ربطات عنق ملونة، والبنات يضعن الأشرطة. يعلق «عقل» صاحب الكشك غزل البنات وكعكات لذيذة غارقة في الدهن السائح، وهو عادة ما يبيع أسماك الرنجة وحبوب عباد الشمس. إنه اليوم الذي لا يظهر فيه أي صياد عند البحيرة، لأنهم يشاركون جميعًا في الاحتفال. ونادرًا ما يظهر منهم أحد واقفًا على قدميه في الساعة الحادية عشرة قبل الظهيرة، لأنهم مجبرون على المشاركة في تقديم قربان ل "عفريت البحيرة".

يلقي رئيس مصنع الأسماك خطبة طويلة، يتجول خلالها بناظريه بين البحيرة والسماء، ثم يثني على التقدم والتعاون. وصبي صغير يرتدي عصابة للرأس شامانية، لكن لا أحد يأتي على ذكره، وكأنه غير موجود، يرقص حول تمثال «الزعيم». يقف المهندسون الروس ونساؤهم في الخط الأول، يرتدون

ملابس أهل المدن، السيدات ينتعلن أحذية بكعوب عالية، ويحملن في أيديهن حقاب يد جلدية. شعورهن مصففة إلى أعلى، وتتحدث نساء المدينة عنهن باحتقار، وأحيانًا يبصقن عند ذكرهن. بينما صار أحد الصبية الروس الصغار مركز إعجابهن رغم ملامحه الجافة. كان يعبر الميدان أثناء الخطبة فوق عربة صغيرة يحركها بقدميه.

لم يمنع «نامي» نفسه من متابعته، يمسك بيد جدته المتعرقة، وقدماه تتداخلان، سيرغب بعد قليل في التبول. يمسك في يده علم صغير على شكل سمكة. يقف جده بجواره في الجانب الآخر، ويكاد يسقط رأسه المتمايل، وتصفق شفتاه من وقت لآخر بصوت مسموع. صوت رعد، أو ربما تكون قذيفة قادمة من معسكرات الروس. ينظر المهندسون الروس وزوجاتهم بتأفف، ويهزون رؤوسهم. فلم يعد أحد يستمع إلى الخطبة، وراحت السيدات يثرثرنَ بصوت هادئ، لكن الناس لايغادروا القاعة من باب اللياقة. الجميع يفكر في الوليمة التي أُعدّت داخل مصنع السمك: معجنات

بالكافيار، أسماك الرنجة بالمايونيز، وكعكة البصل، ونبيذ العنب الأسود للسيدات، وكثير من كؤوس الخمر لرجالهن. لا يتوقف «نامي» عن النظر إلى السيارة الصغيرة التي تدار بالأرجل وتسير بكل إصرار فوق نتوءات الأرض وأخاديدها وكأنها الدبابة. يحاول أن يصرف عنها ناظريه ويفشل، مازال يرى السيارة الصغيرة، حتى عندما يغلق عينيه، بينما صدره يجيش بالغل.

ألن ننصرف يا جدتي؟

بعد قليل، انتظر!

إلى متى سأنتظر؟

لحظة واحدة.

كادت اللحظة تساوي الأبد عند صبي في الخامسة من عمره.

جدتي

ماذا تريد؟

فيصمت «نامي».

هل نمت؟

انتبه الجد من غفوته، وراح ينظر حوله بريبة.

تقول الجدة هامسة:

لقد نام الصبي.

ثم تكز الجد، فيسبها قائلًا:

غبية!

تظهر فوق مقدمة سروال قصير يرتديه «نامي» بقعة تتسع، وتتساقط قطرات البول على جانبي فخده. صوت رعد يعلو من جديد يصاحبه برق. ومازال أمام مدير مصنع الأسماك بضعة صفحات سيلقيها، والرياح تحاول أن تطيح بها. فجأة ودون أي تحذير ينهمر المطر، وكأن جدته راحت تسكب أحواض الماء. وبينما

أخذت تتساقط عمائم السيدات، وتسيل على وجوههنّ الزينة الزرقاء على هيئة خيوط مائية، وتغوص كعوب أحذيتهنَّ في طين سرعان ما ظهر في الميدان. لا يتوقف مدير مصنع السمك عن إلقاء خطبته. تمثال «الزعيم» يرفع ذراعيه إلى السماء. وفي لحظة صار «نامي» مبللّا بأكلمهِ. ولم يبق من الراية الحمراء التي يحملها سوى العصا، وجداول صغيرة من اللون الأحمر فوق ذراعيه. تحول الميدان فصار كالأرض المحروثة. الناس غارقة في الوحل حتى الرُكبِ، وأحذيتهم تنسل من أقدامهم. وسقط في الوحل ذلك الصبي الذي كان يقود عربة صغيرة بقدميه، وانفجر باكيًا. يميل الجد برأسه، ليجعل المطر يسقط على وجهه. يقع الميدان فوق أرض مائلة قليلًا، لذلك لا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يعثر الصبية على مكان رائع للتزحلق في الطين.

يسعى «عاقل» جاهدًا ليمسك بكشكه الذي راح ينزلق إلى أسفل فوق أرض الميدان المائلة، وكرات الحلوى تتدحرج فوق الرف المائل وتسقط في الطين.

يهمهم الجد بعد أن استعاد رصانته قائلًا:

إنها نهاية العالم.

المطر لا يتوقف، ويكاد يغمر العربة الصغيرة. مكبر الصوت لا ينفك يعلن عن الخدمات، ومدير المصنع لا يتوقف عن إلقاء خطبته. وكأنها كوميديا رخيصة جوفاء، وسط خرير المطر والرياح التي تهب قوية وقريبة تجعل الجدة تهتز، وتنظر في هلع صوب البحيرة. يقبض الطبيب الساحر على عمامته، وينصرف على مهل. ثم يتبعه الحشد في حركة بطيئة وكأنهم نيام. يحرر مدير المصنع يده التي تحمل الميكرفون فتسقط، وتتسرب مياه المطر خلف ياقة سترته، وقميصه. فيتطلع نحو السماء معاتبًا. «نامي» غير قادر على أن يساعد نفسه، وتملكته نوبة من الضحك الهستيري، يقهقه كالمجنون، وجدته تحدق فيه، لكن ضحكاته تزداد وتعلو. استغرق في الضحك الهستيري، حتى عندما تجذبه جدته من يده وتتوجه نحو البيت.

لا يتوقف "نامي" عن الضحك إلا بعد أن يتجاوز عتبة البيت. تضربه جدته على فخديه المبللين، فيصمت أخيرًا، لكنه يظل يشهق طويلًا أثناء الليل.

كان محصول السمك وفيرًا جدًا طوال هذا العام.

****

أحيانًا يستيقظ "نامي" في الصباح بعد أن ترسلَ الشمس من خلف النافذة أشعتها على سريره. إنها بالتأكيد أشهر الإجازة، لأن جدته في الأيام العادية هي من يوقظه. والجو في الخارج أكثر دفئًا من داخل البيت. يسمع "نامي" صوت جده وهو يسعل قادمًا من المطبخ، إنه سعال المدخنين. ويصله من بعيد صوت زورق القَطْر. يرمي يديه وقدميه على السرير، ويتطلع إلى سقف الغرفة، حيث يجففون زهور الزعتر، والكاميليا. يتخيل أنّه قد يقضي بقية حياته على هذا الحال. يرى البحيرة عندما يجلس فوق السرير. فيرتدي ملابسه. يجد فوق الطاولة في المطبخ كعكة مقلية مغطاة بطبق أعدتها له جدته للفطور، وقد

صارت باردة. ينطلق إلى الخارج، قرر أن ينجح هذه المرة في بناء مخبأ له وسط أفرع الأشجار. لكنه كالمرة السابقة، يسقط ويصاب ظهرهُ بخدوشٍ .

الشجرة الوحيدة في المنطقة هي شجرة كرز ذات جذع بني مائل للاحمرار، أصابه البرق، ونصف أغصانها قد جفّ. يدفع "نامي" فوقها بعدة ألواح كبيرة متباينة الحجم، لكنها تنزلق من فوقها وتسقط فوقه. عليه أن يوثقها بحبل. يدقّها بمطرقة نجار يستعملها جده، تزن خمسة كيلوجرامات على الأقل. الشجرة تئن، والأغصان ترتجف، والألواح تنزلق وتأبى أن تنصاع له.

يرمي "نامي" المطرقة فوق الأرض وهو يصرخ غاضبًا:

اللعنة!

يصيح فيه جده وهو يخرج من بيت الراحة :

ماذا تفعل أيها الصبي؟ أنت محظوظ أيها الغبي لأنّك يتيمُ الأب وإلّا كان مزّقكَ إربًا.

يستغرق نامي في التفكير، ويتخيل أباه وهو يمزّقهُ إربًا. بدت له الفكرة لطيفة.

يصيح جده وهو يتوجه صوب جدته التي تضع إحدى يديها في خصرها، وتخبئ بالأخرى عينيها وهي تبحث عن «نامي»:

إنه يدمر الشجرة الوحيدة هنا، ولا يكفيه ما فعله.

يجلس «نامي» فوق الأرض خلف سقيفة البيت، ويُكسّر الأحجار. يرفع المطرقة الثقيلة إلى أعلى رأسه، ثم يهوي بهَا وهو يغلق عينيه. ويظل يعيدُ الكرّة حتّى تتساقط قطرات العرق من فوق جبينه وتتحول الأحجار إلى تراب. يشعر بعدها بالرضا. ينظر باندهاش إلى كفيه التي نتأت فيهما البثور، فيقذف المطرقة وسط الحشائش، ويهرول نحو البحيرة ليزيل التراب عن نفسه.

ينادي عليه جده:

تعال إلى هناك! أيها المشاكس! سوف أوسعكَ ضربًا.

يهرول «نامي» وهو يعرف أن جده لن يَلحَق به أبدًا.

****

تقول الجارة «عليا» متفلسفة:

لا أعرف، لكن يبدو لي هذا الأمر غريبًا. كيف استطاعوا بناء مصنع الأسماك بجوار مزرعة الدواجن مباشرة! أنا أعرف أن للأسماك مخا صغيرا، ولِيكُنْ. الأمر يبدو كما لو أنهم بنوا مقبرة بجوار عيادة التوليد مباشرة.

تقول الجدة:

صب لنا كأسين أيها الصبي.

فيصب لهما «نامي» كأسين من خمر البطاطس. فتمرر الجدة يدها فوق الطاولة التي غطاها مفرش بلاستيكي، ثم تتنهد وهي تنظر إلى الخواء.

تواصل «عليا» حديثها:

وعددها هناك قليل، لأنها تموت.

ماذا تقولين؟

ترد عليها الجدة بذهن شارد. ستقوم اليوم بفرد عجين ال«بوريك» مع «عليا» إلى رقائق، وتضع رقاقة فوق الأخرى، ثم تدهنها بطبقة من السمن، تعلوها طبقة أخرى. تستعمل عصا خشبية طولها مترٌ بدلًا من الأسطوانة الخشبية. عصا تشبه تلك التي يستعملونها في قاعة التدريب المدرسية. الجدة تلهث، وتستند بيديها على خصرها وهي تحني ظهرها.

تقول «عليا» باستخفاف:

ليست هناك سوى أسماك الحفش.

لون البيت أزرق، وسقفه أبيض. الأبواب مصنوعة من خشب السنط القوي. كُوّةٌ في السقف تتسلل منه أشعة الشمس حينما تظهر في الأفق، وتتساقط منه مياه الأمطار. تسكن ثعابين صغيرة وسط ألواح خشبية قديمة في أرضية البيت. ثعابين غير ضارة، تختفي أمام خطوات البشر، وتعود إلى شقوقها. تقول الجدة

إنها تجلب السعادة في البيت، وتصب لها الحليب في الطبق.

يقع البيت فوق ربوة صغيرة، ويطل على البحيرة. ترى منه بوضوح السفن العائدة إلى الميناء. درجة سلم واحدة عند عتبة الباب ذات سياج صغير. عليها تجلس الجدة بين الحين والآخر تتابع الرجال وهم عائدون إلى بيوتهم، وتتكئ على طاولة صغيرة. تحيك ملابس، أو تعد خضروات العشاء، أو تقشر البطاطس، أو تزيل نوى الكرز بدبوس الشعر، أو تستقبل الزوار.

تقول وهي تشعر بالإرهاق، وتتطلع إلى الفضاء الذي يظهر عند نهاية البحيرة، حيث تجمعت فيه سحب ثقيلة، ما ينبئ عن مقدم عاصفة:

لا يعجبني هذا.

تصرخ فيها «عليا»:

لا تكوني نذير شؤم أيتها الجدة. وصبّ لنا كأسًا آخر يا «نامي». تلك السحب قادمة من الشرق، وتأتي إلى هنا

في شهر إبريل من كل عام.

تقول الجدة وهي ترش كمية من جبن الماعز فوق طبقة العجين.

انظري! الجنيّة تكشر عن أنيابها. ولا زالت غاضبة.

اصمتي!

هذا ليس كافيًا.

اللعنة!

مازالت تتطلع إلى المزيد.

تجمعت سحب ثقيلة فوق البحيرة، وتلونت بلون الزيتون. سحب ثقيلة جثمت فوق الفضاء الواسع مثل رجل عجوز سمين جاثم فوق عروسه ليلة الزفاف. «نامي» يجمع القواقع في الحديقة، ويصنع منها كومة واحدة. إنها مدرسته التي يصنعها من القواقع. يضع القواقع زوجين عند كل طاولة، ثم يعقد حاجبيه،

وينهرها عندما لا تعرف الإجابة الصحيحة. وأحيانًا يستخدم عصا الخيزران.

تقول الجدة وهي تعقد يديها:

أنا خائفة يا «عليا».

تجيبها «عليا»:

وأنا أيضًا خائفة يا غبية!

ثم تحتضنها. تشكل المرأتان تمثالًا مزدوجًا، تتعلق كل واحدة بالأخرى، وتتعانقان بقوة، تهتزان. لم تكن المرة الأولى التي يتعانقان فيها بهذه الطريقة. سيصنع أحدهم ذات يوم تمثالًا لحورية البحر التي تظلل عينيها وهي تنظر إلى السماء.حشود نساء صارت عضلات أيديهنَّ اليمنى أقوى نتيجة تطلعهم الدائم إلى السماء.

تصيح الجدة:

اذهب يا «نامي» واستدع الشامان !

تصرخ فيه «عليا»:

لا تذهب! إن جدتكَ مخمورة.

يدلك «نامي» فخديه، وينتظر الأوامر التالية.

تقول «عليا» وهي تدلك معصم الجدة بطريقة خرقاء:

عودي إلى رشدكِ أيتها الغبية، وكفاكِ هستيريا!

تسحب الجدة أولى رقائق ال«بوريك». تلوكان معًا العجين الدهني، وتنظران من النافذة إلى تيارات الماء التي تتساقط دون أن تنبس واحدة منهما بكلمة.

يرقد «نامي» على الأرض في غرفته في الطابق الأول. يرسم وهو متكئ بقلم جدة الحبر ذي اللون القرمزي. المطر يلطم ألواح الزجاج، والرياح تصفع شراع المرحاض المُنحلّ. المذياع في غرفة «نامي» يعمل، ويستمع فيه إلى نفس البرنامج كل مساء؛ صوت امرأة

رخيم يذيع أخبار الطقس للملاحين والصيادين في الأربع والعشرين ساعة القادمة. وصوت لطيف هادئ يخبر عن سرعة الرياح والعواصف المتوقعة، وحالة السحب في كل بقعة في البحيرة. يتحدث عن رياح عاتية بقوة عشر درجات بمقياس بوفورت بنفس الهدوء وكأنه يتحدث عن نسمة هواء تهب على أوراق الأشجار. أمر يبعث في نفس «نامي» الهدوء. يضع رأسه فوق أرض الغرفة ويستسلم للنوم. عندما يستيقظ في الصباح تكون السماء قد صفت، والشمس قد نشرت ضوءها في كل مكان. يشعر «نامي» بالإرهاق والجوع. ينزل إلى الطابق الأرضي كي يتناول الفطور. يجد وهو ينظر إلى يديه أنهما تلونتا باللون البنفسجي من أثر قلم الحبر. شمعة مشتعلة فوق المنضدة في المطبخ. جدّته تجلس في ركن المطبخ، وتتكئ بظهرها على الحائط، وتنظر أمامها بعينين جاحظتين.

اختفى الجد، وزوج «عليا»، وستة صيادين آخرين.

****

يقف «نامي» في محطة الحافلات، يجلس فوق الرصيف، وقدماه في الطريق.

يسأله «أليكس»:

ماذا تفعل؟

«أليكس» هو ابن «عليا»، مات أبوه في البحيرة مع جد «نامي». «أليكس» صبي أنمش مثل أمه، ذو شعر أحمر.

يجيبه «نامي» بصوت خامد:

أُطلِق النار على الروس.

ثم يمسح أنفه في كُمِّ قميصه. تمرق سيارة چيب عسكرية على الطريق، ويتطاير التراب من حولها. رجل روسي يدخن وهو يجلس عابسًا خلف عجلة القيادة. يرفع «نامي» بندقية آلية وهمية بعد أن تمر السيارة، ثم يُضَيّق حدقتيه، ويمطر العربة العسكرية بالرصاص، يمينًا ويسارًا، ثم يعاود إطلاق النار.

يومئ «أليكس» برأسه، ثم يقول وهو يجلس:

بندقية عتيقة!

العمل قليل، والطريق واسع زيادة عن اللزوم، فعدد السيارات التي تمر عليه قليل، باستثناء «يوم السلام»، و«يوم الصيد». أحيانًا تظهر فيهِ سيارة نقل في طريقها إلى مصنع السمك، أو أخرى تتجه إلى الميناء. بضعة عربات جيب عسكرية تظهر فوقه، إضافة إلى حافلة ركاب، مرة أو ثلاث مرات في اليوم. في الصباح قطيع من الأغنام يتجه نحو الشرق، ثم يعود بعد الظهيرة.

إنهما يعملان الآن معًا. «نامي» يطلق النار من بندقيته الآلية، و«أليكس» يلقي القنابل اليدوية. وكل منهما يصرخ قبل كل انفجار، ثم يلطمان أكفّهما فرحًا بالانتصار كلما كان الانفجار مثيرًا، وأشلاء أجساد البشر ومعداتهم تتطاير في الهواء. يبصق «نامي» راضيًا. تتدحرج بصقته، فيتجمع عليها التراب إلى أن تقف عند حذاء رياضي أحمر.

يقول الرأس صاحب الحذاء الرياضي الأحمر:

عندما تطلق النار على سيارات روسية سوف يوسعونكَ ضربًا، وسيطلقون النار على والديك.

إنه رأس فتاة من مدرسة البنات الموجودة في الميدان. إنها تقريبًا في نفس عمرهما. تسع أو عشر سنوات. تضع في شعرها شريطة صفراء.

يجيبها «نامي»:

ليس لي أب ولا أم.

ثم يغلق عينيه. تنظر الفتاة إليه لبرهة، ثم تهز كتفيها، وتواصل السير. فيقول «أليكس»

أرغب في مضاجعة امرأة.

ثم يخبئ رأسه. فيرد عليه «نامي»:

ضاجع جدتكَ!

ثم يبصق في التراب من جديد. يتابعان سفينة نقل تحمل نصف حمولتها وتغادر الميناء. يقول «أليكس» بلهجة الخبير ببواطن الأمور:

طوال الليل وأنا أتقيأ.

فيسأله «نامي»:

هل سبَحْت في البحيرة؟

نعم، عدة ساعات بعد الظهيرة.

أنا أيضًا أتقيأ بعد السباحة.

اختفت الفتاة ذات الوشاح عن الأنظار. السماء تزأر، وتظهر على الفور ثلاث طائرات مقاتلة. فيوجه الصبيان أسلحتهم الافتراضية نحوها، ويطلقان النار عليها فيسقطانها. ثم بعدها يبصقان بامتنان في التراب.

****

توجد خلف الميناء هضبة وبيوت للصيادين على جانبي طريق ترابي، وفي نهاية الطريق كشك يبيع أسماك الرنجة، وكشك آخر يبيع حبوب عباد الشمس. في الصيف يأتي صبي صغير يبيع غزل البنات، ويستأجر متجرًا في آخر الشارع كان في السابق حانة. البيوت قوية، مبنية من الطوب، وغالبيتها من طابق واحد، باستثناء بعضها، ومنها البيت ذي الطابقينِ الذي يسكنه «نامي» مع جدته. يطلقون على الشارع اسم شارع السمك. وغرب شارع السمك توجد مباني خدمات – مستشفى، ومركز ثقافي، وبريد، ومدرسة، وبيوت باقي السكان بُنيت بصورة عشوائية. ونادرًا ما تجد فيها شوارع تظهر بصورة عشوائية من فوق الهضبة ، وبشكل مفاجئ غالبًا.يوجد ناحية الشرق حي سكني يقطنه الروس، مخصص للمهندسين، به ميدان رائع، وتمثال لـ«الزعيم». وثكنة عسكرية عند الغابة تراجعت جزئيًا أمام المباني.

يتردد من داخل الحي صوت هارمونيكا، وصياح سكارى. بنوا الحي من أجل الروس. وهو عبارة عن

بضعة عمارات موزعة على شكل زاويا قائمة. داخل الشقق خزائن للفودكا غائرة في حيطانها. فيها أيضًا ما يعدّونه في مدينة «بوروس» مركزا تجاريا به دار سينما، وفندق بحمام سباحة. حمام سباحة! يقف تمثال «الزعيم» في الميدان الحجري. توجد بين العمائر أعمدة خرسانية مائلة، بها حِبال، يعلقون عليها الملابس الملونة لتجف، حاملات صدور ضخمة، وسراويل داخلية بألوان يصعب وصفها. تخفق الأزياء في الهواء، لكن في لحظة بعينها تتوقف أثناء خفقانها، وتلقي التحية العسكرية على تمثال «الزعيم».

تقول الجدة وهي تدهن تشققات كعبيها بدهن الجَمل:

الروس يمرحون. وسيعلو ضجيجهم أثناء الليل من جديد. أتمنى ألا يبدؤوا بإطلاق النار كعادتهم.

يقول «نامي»:

لن يفعلوا. إنهم مهندسون يقطنون الحي السكني، وليسوا كهؤلاء الأغبياء في الثكنة العسكرية.

كلهم واحد. صب لي كأسًا أيها الصغير.

جدتي؟

ماذا؟

عظامي تؤلمني، وخاصة أثناء الليل. وهذا الألم يوقظني أثناء النوم.

أين هذا الألم أيها العصفور!

يمرر «نامي» يديه على ساقيه، ويقول:

هنا.

هل تفعل بنفسكَ أشياءً سيئة أسفل الغطاء؟ هل تفعل؟ لأنك لو كنت فعلت، لكان هذا الألم عقابًا على ما فعلته.

لكن يا جدتي!

أقول لكَ لو كنت فعلت!

لكن يا جدتي، هذه أفكار غريبة.

غريبة، أو لا، لن تفعل شيئًا يسوؤني. خذ من فوق الرف مرهمًا مسكنًا، وادهن به ساقيك.

ينهض «نامي»، ويصب لجدته كأسًا، ثم يبحث عن المرهم فوق الرف وسط العلب المختلفة.

هل هذا هو المرهم؟

هذا شحم للدولاب يا أهبل. بجواره.. ربما يكون في تلك العلبة البنفسجية. ادهن به.

إن رائحته كريهة مثل رائحة قدمي التي تؤلمني.

إنه هو إذن.

يدهن «نامي» من المادة ذات الرائحة الكريهة، ويوزعها فوق ساقيه بكل حرص.

هل أنتِ متأكدة من أنه سيخفّف ألمِي؟

أنتَ نحيف مثل جدك، يا صغيري.

ثم تغطي الجدة رأسها، وتصمت. تقول بعد لحظات بصورة درامية:

لم يخبرني أحد أن حياتي دونه ستكون حزينة.

يعقد "نامي" حاجبيه، بعد أن صعقته رائحة المرهم الكريهة:

لكنه كان دائمًا يَسُبّكِ؟ ويضربكِ. وآخر مرة خلع لك سِنّا. هل نسيتِ كل هذا؟

تهز الجدة يدها، وتقول:

لو أنه دخل من الباب الآن لأعطيته وجهي ليخلع لي سنّا آخر.

يهز «نامي» رأسه، لكن دون أن يتحدث. لاحظ أن جدته تبكي بصوت مكتوم، وتجفف الدموع من على وجهها بأصابعها المتسخة.

ثم تشهق مرة أخرى وهي تقول:

أسوأ شيء في العالم هو أن تكون وحيدًا.

كثيرًا ما تسقط الجدة أسيرة انفعالاتها، وهي تحب هذا. أما «نامي» فلا يعبأ بالأمر. بل إن سعادته الكبرى عندما يكون وحيدًا.

زوجي المسكين! جسده على الأقل قابع في البحيرة، وليس في مكان ناء بالصحراء.

يا جدتي! أين والدي؟ لماذا أنا لا أبَ لي ولا أمَّ؟

لكن جدته لا تسمعه.

يا جدتي! أين اختفت تلك السيدة التي جاءت معنا مرة عند البحيرة عندما ألقاني فيها جدي وهو يعلمني السباحة؟ كانت ترتدي مايوه أحمر، وأمسكت برأسي يومها وأنا أتقيأ.

هزت الجدة رأسها في تحدٍ، تمامًا كما يفعل «نامي» أحيانًا وهو يشرح للمدرسة السبب الذي منعه من القيام بالواجب المنزلي. وبدأت تنظر إلى باطن يديها، التي غطتها البثور الوردية الصغيرة.

بالتأكيد كنت تحلم. ربما كانت جارتنا «عليا». فهي تذهب معنا أحيانًا للسباحة.

هز رأسه، وقال:

هراء! إن عليا حمراء الشعر، وسمينة، وتفوح منها رائحة السمك.

ترد الجدة:

لقد حان وقت النوم. انصرف إلى السرير كي لا تتأخر غدًا على المدرسة. فلقد عجزت اليوم تمامًا عن إيقاظكَ.

يتنهد «نامي»، ثم يقف. ينحني، ثم يفكُّ سرواله المعقود. تلاحظ جدته أنه صار قصيرًا عليه، وينتهي

فوق رسغيه. لكنه لا يعلق على الأمر.

تصيح فيه:

اغسل فمكَ بالصابون، أيها العابث الوقح.

****

كل يوم تقريبًا يلتقي بالفتاة التي تضع شريطة صفراء في شعرها وهو عائد من المدرسة. أحيانًا تكون الشريطة صفراء، وأحيانًا مرقطة. يطأطئ كل منهما رأسه وهو يتجاوز الآخر دون أن يتبادلا النظرات. ودائمًا ما يشعر «نامي» بضيق في حلقه.

يقول «أليكس»:

أقسم لكَ بأنها مومس.

لكن «نامي» يتجاهله عادة. يشتري من كشك «أكيل» حبوب عباد الشمس المحمصة، ويبصق القشور على محطة الحافلات، حيث يجلس فوق الرصيف، ويبصقها على أرض الإسفلت.

أنتما، أيها الرفيقان!

يصيح فيهما شابان يدخنان السجائر. إنهما في الصف الأعلى بالمدرسة. يتمنى آباء وأمهات هؤلاء الفتية أن ينالوا فرصة جيدة من التعليم، وأن يدخلوا الأكاديمية البحرية. لكن غالبيتهم أغبياء، ينتهي بهم المطاف فوق قوارب الصيادين مثل آبائهم.

يسأل أحدهما:

أنتما، أيها الرفيقانِ، أترغبان في ممارسة الجنس؟

ثم ينقر عُقْبَ السيجارة بطرف إصبعه، بحركة تدرب عليها جيدًا، فيتطاير عبر الشارع.

يجيب «أليكس» بكل تحفظ:

يومًا ما سنرغب في هذا.

ثم يغمز بعينيه بطريقة عصبية.

يقول ذلك الغبي، وهو يدوس قدم «نامي» بخفة:

وماذا عنكَ؟ ألم تضاجع امرأة بعد؟

بل ضاجعت، ضاجعت أمكَ.

يضحك رفيقه الغبي الثاني. فيرد الغبي الأول على «نامي» بغضب وقد امتقع وجهه:

أنا أسألكم إن كنتم ترغبون في تجربة جنسية مثيرة.

يتجولون في المدينة الصغيرة، ورياح ما بعد الظهيرة الجافة تهب قادمة من الصحراء. وهدير الجِمال يعلو. الجو حار، وجباههم تتصفّدُ عرقا. يعبرون الحي الروسي، ويمرون بمصنع السمك، وأحواض السفن الجافة، ثم ينزلون السفح في اتجاه حي الغجر. خلت الشوارع من المارة، باستثناء امرأة غجرية تجلس أمام إحدى العشش الخشبية، وتضع غطاءً فوق رأسها، وتدخن.

ستكون غجرية إذن. أليس كذلك؟

يهمس «أليكس» بكل ثقة. «نامي» يسير خلفهم وهو يضع يديه في جيبه. يضحك الولدان الغبيان وهما يتبادلان النظرات. يشير أحدهما على بيت في إحدى الحارات. البيت له بوابة دخول، لكنه بدون أسوار. ويقول:

إنه هناكَ.

نعم.

يجيبه الغبي الثاني. كلب أحمر نائم عند عتبة البيت يرفع رأسه بانتباه، ثم ينتفض.

فيضحك الولد الغبي، ويقول:

ماذا؟ أنتَ أيها الحثالة القذر، أتقوم بالحراسة؟

ينبح الكلب بشكل غاضب، ثم يعدو خلفهم.

يقول «نامي»:

لِنَهْرب!

فينطلقوا الأربعة عائدين عبر حي الغجر. يقفز الغبيان فوق عربة تقف أمام إحدى العشش، وهما يبتسمان ببلاهة. يواصل «نامي» و»أليكس» الجري والكلب الغاضب في أثرهما. تصرخ فيهم عجوز غجرية. لكن «نامي» يخاف من أن يمزق الكلب سرواله، فيصيبه مس من الجنون.

يلتفت «أليكس» حوله فيتعثر. يصرخ قائلًا:

اللعنة!

يجثم الكلب فوقه، ويطوق ساقه بقدميه الأماميتين. يحني ظهره، ويشرع في مضاجعة ساق «أليكس». يصرخ أليكس:

نامي! أرجوك، ابعد هذا الكلب عني!

ملامح غبية كست وجه الكلب. أخرج لسانه، وتوقف عن النباح وهو يحرك جسده على التوالي وبسرعة. يقف «نامي» وهو يتابع صديقه بكل أسى. استغرق الولدان الغبيان في الضحك حتى دمعت عيناهما.

وسقط أحدهما من فرط الضحك فوق العربة. يصيح الغبي وهو يقرقر:

أخبرني! هل يعجبكَ النكاح؟ جميل، أليس كذلك؟

يهدأ الكلب ثم يتراجع مسرعًا. يقف بعيدًا عنهم وعلى وجهه نفس التعبير الغبي، يتطلع إلى «أليكس» بنظرة شاردة، لسانه يتدلى وهو يلهث بسرعة. يرمي «نامي» الكلب بحجر، فيعلو نباحه من الألم والدهشة، ثم ينصرف مسرعًا. ينهض «أليكس»، ويمشي في الاتجاه المعاكس وهو يجر قدمه التي نكحها الكلب وكأنها ليست له.

****

كان الولدان الغبيان أحيانًا يترقبان «نامي» وهو عائد من المدرسة. إنهما أطول منه قليلًا، لكن «نامي» أسرع منهما. وغالبًا ما يتمكن من الهرب منهما. وعندما يفشل في ذلك يمسكانه. أحدهما يحكم قبضته عليه، والثاني يتحسس ما بين فخديه. ثم يتركانه بعد أن ينال منهما

ركلة أو ركلتين. يصيح فيهما نامي وهو ينفض سرواله:

شاذّانِ! ملعونان!

رأى «نامي» ذات يوم في المرآة أول شعرة تنبت في شاربه، فأسرع على الفور وحلقها بموسى جِدّه، وأخذ يمعن في اجتزازها حتى سال دمه. لقد تأخر عن المدرسة، ولا وقت لديه لكي يجوب الحي وهو يطارد الولدين الغبيين، وهما قد استعدا له. يقفان بسيقان منفرجة وسط طريق ترابي، أيديهما في جيوبهما، ويرمقانه بنظرة حادة. إنه يرى المَدرسة، لكنه مازال بعيدًا عنها.

يصرخ فيهما:

شاذّانِ! ملعونان!

ثم يسرع خطاه كي لا يقع ولا يلحقَ به أيٌّ منهما. يعرقله أحدهما، فيطير «نامي» في الهواء، ثم يسقط

على ساعده فيصرخ من الألم بعد أن أصيب فيه. وقبل أن يهم واقفًا يجلس الصبي الغبي فوق ظهره.

اتركني أيها الغبي! سأتأخر عن المدرسة.

لكن الصبي ظل جاثمًا فوقه، يهمس في أذنه بصورة مثيرة. «نامي» يشعر بدفء أنفاسه فوق رقبته.

ابتعد عني أيها الشاذ، رائحة فمكِ كريهة. وأكاد أتقيأ.

تعال مساء اليوم إلى الحانة أيها الصبي. دعنا نبحث عن أبيك وسط الرجال.

انصرف!

فأمك قد ضاجعت كل الرجال.

ليس لي أم أيها الغبي!

ماذا تقول؟

ذُهِل الصبي إلى درجة أنه أفلت «نامي» من قبضته.

ما هذا الهراء الذي تقوله؟

يحرر "نامي" نفسه، ثم يقفز واقفًا على قدميه. لكن الصبي يمسك حافظة الكراسات، ويحركها أمام عينيه.

يكرر „نامي“ مبتسمًا، وبدا عليه رضا المنتصرين:

ليس لي أم أيها الغبي.

يلتفت الصبي الغبي نحو صاحبه، الغبي الآخر الذي يقهقه قائلًا:

إنه يعتقد أنه بلا أم، أتفهم؟

وكيف تفسر مجيئك إلى هذا العالم أيها الذكي؟

ربما يظن أنه سقط من مؤخرة جَمَل.

أو بالانشطار من عضو أحدهم.

«نامي» صامت بعدما اختفت الابتسامة من وجهه.

هذا الغبي لا يعرف.

نعم، لا يعرف.

كان يجب أن يخبره أحدهم.

شاذّانِ!

أمك كانت عاهرة، تضاجع كل رجل له عضو.

غبيّانِ!

ينتزع «نامي» كراساته، فيحررها الصبي، وينتهي الأمر. ينصرف «نامي» إلى مدرسته. يرى أبوابها وهي تُغلَق، فيبطئ. يجلس فوق درجات سلم أمام المدرسة، وهو يخط في التراب بعصا في يده. لقد تمزق سرواله فوق ركبتيه.

****

الحانة عبارة عن كوخ إسمنتي، يبدو وكأنه غرفة محول تيار كهربائي، وقد كانت كذلك بالفعل في السابق. على الحائط عدة عوازل خزفية متهشمة، تبرز منها أسلاك مقطوعةٌ. ولا يضيء من اسم الحانة

NONSTOP إلا الأحرف الثلاث الأولى بمصابيح نيون. بابها مفتوح على الدوام، فوقه شرائط مطاطية لتمنع دخول الذباب. بداخل الحانة رائحة خمر عالقة في المكان لا تبرحه، ودخان سجائر ثقيل رطب، وفي الخارج مساحة كبيرة مغطاة بالبَوْل.

في المساء، وبعد أن تتوقف الشمس عن لفح الأرض الترابيّة، وتغرب خلف هضبة "كولوس"، عندما تتوقف عن إزعاج الدبابير، وقتها يخرج الرجال أمام الحانة يحملون زجاجات الخمر والدخان الرخيص، ثم يستقرون حول طاولات بلاستيكية بها ثقوب صنعتها نيران سجائر منسية.

بدأ "نامي" يقترب من الحانة. يجلس وسط عناقيد العشب الجاف، يأكل حبوب عباد الشمس، ويبصق قشورها في الهواء. بعد بضعة أيام يدعوه الرجال ليجلس معهم، ويشتري له "كارال" العجوز كأسًا من الخمر. يشربه "نامي"، ثم يتلهى الرجال به وهو يترنح، ويهذي بكلام غير مفهوم إلى أن يصطدم بصندوق البيرة، ويسقط فوق الأرض.

يقول "كارال" بعد أن توقف عن الضحك، وقد فرد ذراعيه اللذين شوهتهما الأكزيما:

هكذا ماتت جمالي. ماتت بنفس الطريقة. راحت تترنح بعدما أسرفت في أكل العشب، ثم سقطت على الأرض، ولم تقم لها قائمة بعدها. استمرت على هذا الحال بضعة أيام، تتقيأ، ويعلو بُغامُها كالجريح. فاضطررت في نهاية الأمر إلى ذبحها كي أريحها من الألم.

يصمت «كارال» وهو يفرك عينيه.يقول أحد الجالسين:

الحشائش مُفْعَمَة بالملح، والمواشي تتضرر من أكلها.

يستأنف «كارال» الحديث:

خمسون جملًا. هل تصدق هذا؟ كانت مَهرًا لكل بناتي، والآن صِرت لا أملك أي شيء.

يسود الصمت. الرجال يصوبون أعينهم نحو الميناء القديم، ويرتشفون الخمر من كؤوس صغيرة في

أيديهم. نقاط مضيئة تشع نورًا هنا وهناك وسط الظلام كلما سحب الرجال الدخان من سجائرهم.

يقول رجل مسن:

لم يعد مصنع الأسماك يتلقى سمكًا.

أيها الذكي، إن مصنع الأسماك يُسرّح العمال منذ عامين. وكل مزارع الدواجن تكاد تعلن إفلاسها.

يلتفت أحدهم إلى «نامي» الذي مازال مستلقيًا فوق الأرض، يراقب نجوم السماء التي تتأرجح بقلق فوقه، ويقول له:

أيها الصبي! أيها الصبي! اذهب إلى الكشك وأحضر لنا أسماك الرنجة.

ينهض «نامي» متباطئا مستندًا على يديه، ثم يتقيأ. يتساقط القيء فوق التراب من بين يديه.

يصيح «كارل»:

هكذا تقيأت جِمالي.

تسألهم صاحبة الحانة بعدما خرجت من الكوخ، واتكأت على إطار الباب:

من هذا الصبي؟

تضع المرأة مئزرًا أسودًا ترتديه كل أرملة، وشعر أبيض مُتمرّد يلف وجهها المنتفخ.

ينادي عليها أحدهم:

مارينا، احضري لي كأسًا آخر!

لكنها تتجاهل نداءه.

من أنت أيها الصبي؟

يزعق رجل آخر وهو يسعل:

أيها الصبي! أحضر لي سمكًا مملحًا!

يقول «نامي» وهو يمسح فمه:

جدي هو الصياد «بيتر».

يسود الصمت. ثم يقول «كارال»:

إنه ابن تلك المرأة المومس.

خيم صمت، يخترقه سُعَال الرجال.

تقول الساقية وهي تمد له يدها السمينة:

تعال إلى هنا! ادخل! جدتك ستقلق عليكَ. اجلس هنا واسترح.

تجلسه رغمًا عنه فوق مقعد في داخل الحانة. ضوء خافت يصدر من خلف طاولة البار، ولوحة أحد القديسين بالكاد تظهر فوق الحائط. تنطلق موسيقى خافتة من المذياع أثارت معدة «نامي» من جديد.

تصب له كأس ماء، ثم تضع فيه بعض الملح، وتقلبه.

خذ هذا، واشربه! كم عمركَ؟

أربعة عشر.

ثم يشرب الماء، ويلفظه مرة أخرى:

ما هذا القرف!

لابد أن تشربه. سيجعلك تتحسن.

يشرب «نامي» الكأس. ويسعى رغمًا عنه إلى أن يحافظ على الماء داخل معدته.

الآن أسرع إلى البيت أيها الصبي! جدتكَ بالتأكيد قلقة عليكَ.

أتعرفين أمي؟

تفرد المرأة جذعها. الرجال يصرخون في الخارج. يقف العجوز وسط شرائط المطاط، وهو يغمض أحد عينيه، ويسأل عما يحدث.

كنت أعرفها أيها الصبي! إنها امرأة جميلة، كالمرمر.

ماذا حدث لها؟

تهز المرأة كتفيها.

أنتِ تعرفين ما حدث لها!

- اهدأ. أنا لا أعرف ماذا حدث لها. على الأرجح أنّها رحلت إلى المدينة. ما عساها أن تفعل غير ذلك!

إلى أية مدينة؟

إلى العاصمة بالطبع! الجميع يذهبون إليها. أيها الصبي! أنتَ تشبه جدّكَ في طريقة تفكيركَ.

أنا لست كذلك!

المهم ألا تتقيأ هنا.

يشرع «نامي» في التقيؤ من جديد. يقف على قدميه بكل حرص، وهو يمسك بالطاولة.

ما اسمها؟

اسمع! اذهب واسأل جدتكَ.

ينقبض وجه «نامي». فتول له المرأة:

حفظكَ اللّه! صبي قوي، وبصحة جيدة! عليك أن تغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن.

كان الظلام قد خيم على البيت عندما دخله «نامي». تأكد من أن باب حظيرة الفراخ مُوصَد. ثم ذهب للتبول عند عتبة الباب، ودَلَف إلى البيت بكل هدوء. جدته تغُطّ في نومها، مع لحظات صمت طويلة.

****

وحدة عسكرية تقف في الخليج الصغير وقد علاها الصدأ. طائرتان مقاتلتان، مدمرتان، ناقلة دبابات، وسفينة إنقاذ لمكافحة الحريق، وبضعة قوارب لخفر السواحل. إضافة إلى كاسحة ألغام تقف بالطبع منتصبة وسط الطين الجاف، وكل شيء ما عداها يقف مائلًا. هذا الفيلق العسكري الميت لا يلتفت إليه حتى

الأطفال في هذه المدينة الصغيرة.ينظرون إليه باستنكار قائلين: ما هذا؟

تمر فصول الصف السادس بالمكان في رحلة سنوية لزيارة المتحف. لا ينتبه أحد إلى وجود هذا الحطام. لقد صار جزءًا من البلدة مثل صخرة «كولوس»، أو مثل تمثال «الزعيم» الذي يرفع أحد ذراعيه في الحي الروسي. حتى المتحف لا يهُمّ أحدا. يترددون عليه منذ الصف الأول. إنه المزار الوحيد في المدينة، إضافة إلى زيارة السيرك الذي يأتي إلى البلدة بصورة غير دورية.

عثر «نامي» من جديد على رائحته المفضلة وسط صور احتفالات الصيد التي يجتمع فيها كل أهل المدينة وهم يرتدون الأزياء الشعبية، ووسط صور الزعماء الذين يرتدون بذلات تقليدية مصنوعة من جلد ناعم، ووسط بعيرهم المحبوبة ذات السروج المطرزة، ومع دمية دب غير متقنة الصنع. رائحة المردقوش البري الناعمة، والبطيخ الأصفر. شريط فيروزي اللون يسبح وسط معروضات الأسلحة

التقليدية، رماح، وحراب خشبية. يهرش خدشًا في يده وهو ينظر إليه. يشعر «نامي» بحنين دفين، شعور مؤلم يشبه شوق فحل خيل. فتاة تبتسم له، فيطأطئ رأسه على الفور. إنه يبحث عن «أليكس». إنه هناك، في المتحف، في أكبر نقطة تجمع - عند صور أرشيفيه لصائدات الأسماك اللواتي يصطدن الأسماك بالرماح الخشبية عاريات، ويعرضن صدورهن فوق الرصيف بكل فخر. كانت جدته قبل كل زيارة تنظر إلى «نامي»، وتطلب منه أن يدقق في الصورة، ليعثر على صورتها وسط النساء. كان «نامي» واثقا من أن جدته تسعى كل مرة إلى إجهاده عبثًا، لأن أيّا من تلك النساء الرائعات اللواتي منحتهن الطبيعة جمالًا خلابًا لا تشبه جدته العجوز السمينة، لا من قريب ولا من بعيد.

قالت مرشدة المتحف بصورة آلية:

اليوم لم يعد أحدٌ يصطاد بهذه الطريقة.

لدينا تقنيات حديثة لصيد الأسماك وأكثر كفاءة من تلك الرماح الخشبية. تقنيات جماعية! هل تعرفون

لماذا كانوا يصنعونها من أخشاب الطقسوس بالتحديد؟

كانوا جميعًا يعرفون. فقد سمعوا هذا الكلام عدة مرات. وامتنعوا جميعًا عن الرد عليها. تومئ المرشدة السياحية برأسها بطريقة مصطنعة وكأنها دمية، ثم تقول وهي تبتسم:

على أي حال، فقد نما صيد الأسماك في «بوروس» في السنوات الخمسين الأخيرة بخمسين ضعف. أي أن عدد الأسماك قد تضاعف خمسين مرة من تلك التي كانت جداتكم تصطادها.

راح «نامي» يبحث بعينيه عن الفتاة ذات الوشاح، لكنه لا يراها في مكانها عند الحائط. شعر وكأن قلبه قد فارقه للحظات، ثم انتبه إلى أنه سعيد بأن فتاته قد انصرفت، وكأن أحدهم قد فكّ قيده.

يلتفت إليه «أليكس»، ويقول:

هيا نخرج كي لا نجرح أقدامنا من العناكب أو ما شابه.

تكرر المرشدة وكأنها ماكينة عطبة:

خمسون مرة.

يختفي «نامي» مع «أليكس» من مبنى المتحف. إنه بيت صغير، على نوافذه الأزهار، يشبه كوخ عامل التحويلة. فوق مدخله لافتة كبيرة تقول «متحف المدينة». إنه من المباني الإسمنتية النادرة في المدينة التي يقومون بطلائها باللون الأبيض، من حين إلى آخر. يتكئ «نامي» و»أليكس» على حائط بين نافذتين. يقول «نامي» إنه لا يعبأ بالعناكب، وأنها تسلية للأطفال. يومئ له «أليكس» بكل جدية، ثم يسحب سيجارة من جيب قميصه، ويشعلها.

يضحك نامي باندهاش، ويقول:

ممن سرقتها؟

يتظاهر «أليكس» بالجدية، ثم يسحب الدخان، ويحبسه في صدره، ويحاول ألا يسعل.

يقول «أليكس» الذي تقصر قامته عن «نامي» مقدار رأس ونصف الرأس:

أتعرف! التدخين هو التدخين!

لا يرد عليه «نامي»، ويكتفي بفرك البثور على كفيه.

هل سمعت عن المولود الغريب؟

ما هو؟

طفل بثلاثة أياد. إنه ابن مدير الجمعية الزراعية.

لاحظ نامي أن «أليكس» لديه شعيرات صهباء نامية فوق شفته العلوية.

كنت أعتقد أن الطفل قد ولد بدون قدمين.

كلا، حدث هذا في السابق.

ألن تدخن أنتَ أيضًا؟

لن أدخن.

يتطلعان معًا نحو الأفق حيث مجموعة من أبراج المناجم بدت وكأنها أشجار ميتة. يقول «أليكس» بكل برود وهو يسحب الدخان إلى صدره، وينظر أمامه في الخواء:

لقد طردوا أمي من مصنع الأسماك.

وماذا ستصنع؟

يهز «أليكس» كتفيه، ويزمّ شفته السفلى، ويقول:

ما عساها تفعل؟ ستعثر على عمل آخر، أليس كذلك؟

يومئ «نامي».

ألن نعود إلى الداخل؟

دعك من هذا.

معكَ حقّ.

وظلا واقفين طويلًا متكئين على حائط المتحف ينظران في صمت إلى الخواء.

يقول «أليكس» وهو يسعل:

تلك البنت. تلك البنت تطلب منكَ أن تذهب إلى المرفأ. كدت أنسى أن أخبرك بهذا.

أي بنت؟

من ستكون أيها الغبي! يبدو أنها ترغب فيمن يحك لها عضوها.

غبي!

لو كنت مكانكَ لضاجعتها.

أنا بالتأكيد لن أذهب إلى الميناء.

****

ترسو السفن بعيدًا عن الميناء القديم، وقد صنع الأطفال ملعبًا لكرة القدم في الجزء الفاصل بين حدود المَدّ والميناء. ملعبًا مائلًا بعض الشيء، لذلك تتجه تمريرات الكرة نحو البحيرة. التراب يتصاعد من الملعب، وأحيانًا تسقط قدم أحدهم وسط رواسب البحيرة الصلبة. الحاجز الصخري المغطى بأهداب بالية يقف وحيدًا وسط الرمال الصلبة والطين، والقمامة تنتشر أسفل حلقات معدنية كانت لربط السفن ذات يوم. الرصيف الوحيد الذي يؤدي إلى سفن الصيد مصنوع من الخشب. يقوم الصيادون على مدى ستة أشهر بإطالته بضعة أمتار إلى داخل البحيرة كي لا يضطروا إلى المشي فوق قاعها الجاف وهم يحملون خزانات النفط، وسِلال السمك الذي اصطادوه، وأيضًا ليجدوا مكانًا يربطون فيه قواربهم. تظهر قوارب صغيرة متناثرة هنا وهناك في قاع البحيرة الجاف، تتآكل أجسادها في كل يوم تحت لهيب الشمس.

يجلس «نامي» وسط حشائش جافة على الرصيف الخرساني، فوق قمة الهضبة، حيث بنى الروس هناك

منذ أعوام هوائيّا لالتقاط الإشارات القادمة من الفضاء. كانوا وقتها مازالوا مقتنعين بأنهم سوف يسافرون إلى كواكب أخرى، يستعمرونها، وربما يرافقون الكائنات الفضائية، رجالًا ونساءً. هذا ما تعلمه «نامي» وهو في المدرسة. لكن مع مرور الوقت توقف المدرسون عن الخوض في هذا الأمر. كانت القاعدة الإسمنتية ملونة برموز واضحة للأعضاء التناسلية، وطبق هوائي ضخم يميل كل عام ليقترب من الأرض وكأنه عباد شمس يتداعى. يتساقط دهان أحمر داكن من الجانب الخلفي للطبق على صورة خيوط طويلة. و«نامي» يلوك في فمه قشة من الحشائش المسممة. صارت الشمس قريبة من الأرض، وتلقي عليها بظلال طويلة. الهواء مفعم بتراب يغطي الملابس، ويزكم الأنوف ويملأ الصدور. وكلب قذر ضال يزحف وسط الحشائش، ثم يرقد قريبًا من «نامي». كدمة كبيرة فوق عينه اليمنى. يصرفه «نامي» بعيدًا بحجر في يده، فيهرول الكلب، ويستلقي في مكان بعيد.

يظن «نامي» أن يده متسخةٌ، فيشرع في تنظيف القذارة عن أظافره. يرى وهو ينظر صوب المدينة تلك الفتاة تمشي على الطريق، تتطاير حولها هالة تراب ذهبية، بدت وسطها وكأنها شبح. واصل «نامي» تنظيف أظافره وهو يتظاهر بأنه لا يراها. لقد قرر أن يتركها تمر دون أن يريها نفسه. لملم جسده وكأن في بطنه وجعا بعد السباحة في البحيرة.

تلمحه الفتاة فترفع يدها بحياء لتحيته. فيومئ لها. تصعد الفتاة فوق الحائط الإسمنتي بكل مهارة وتقفز فوقه. تذهب إلى «نامي» فوق الحشاش الجافة. الضفادع تنزلق تحت قدميها وسط التراب. ثم تجلس بجواره.

ستتسخ ملابسكِ!

تهز الفتاة يديها. يقول «نامي» وهو يشعر بأنه سيختنق:

يا لها من فكرة أن ترتدي فستانًا أبيض هنا!

ثم يسعل. فترد عليه الفتاة:

نعم، وسط هذا التراب.

تداعب الفتاة الكلب، فيبدأ في الحبو نحوهما فوق الأعشاب الجافة.

لا تناديه. إن جسده مليء بالبراغيث والتقرحات.

أنا آسفة على حاله. انظر كم هو وحيد!

تجلس الفتاة وهي تتجه نحو الغرب، فترى شعيرات دقيقة تغطي يديها ورقبتها، شعيرات لونتها الشمس باللون الذهبي. يستدير «نامي» على بطنه. تسعل الفتاة، وتقول:

اممم. اسمي ظاظا.

نامي.

أنا أعرف

صحيح؟

ماذا تعني؟ الكل هنا يعرفكَ.

كيف هذا؟

تقول «ظاظا»، وقد اكتسى وجهها بعض الفزع:

هل تمزح؟

لا عليكِ! أنتِ تظاهرت يومها على محطة الحافلات، لكن... لا شيء.

يهز نامي يده. ثم يبصق القشة التي يلوكها في فمه، ثم يقطع أخرى. يتمنى من كل قلبه ألا تراه وأصابعه ترتجف.

يقول لها باستخفاف:

لديكِ بشرة طرية.

تعبس «ظاظا»، وترد عليه:

ماذا تقصد؟

أقصد أن بشرة غالبية الناس هنا حمراء، ومنتفخة. لكن بشرتكِ هذه وردية، وجميلة.

نعم!

لم أقصد إزعاجكِ.

أنا أدهنها بالشحم. لكنه لا ينفع!

سمعت أن طفلًا ولد بثلاث أيد.

تجيبه «ظاظا»:

خراف برأسين عادي، لكن طفل بثلاثة أيد؟ هذا لم يحدث من قبل. لكن لمَ أزعِج نفسي بالأمر؟ أريد أن أرحل من هنا.

يهز «نامي» رأسه قائلًا:

يمكن أن نرحل معًا لو أردتِ.

تومئ «ظاظا» برأسها وهي تبتسم.

سآتي إلى هنا غدًا. حسنًا؟

حسنًا.

تنظر خلفها إلى شمس الأصيل وهي تختفي مع نبع سعادة يَتَفجّر منها. ترى بعيدًا خلف أحواض السفن الجافة رجلًا بجوار بيت صغير يقع وسط كومة من المخلّفات، يرتدي بذلة غطس، ويتحرك برشاقة في الحديقة وكأنه يرقص. يدير «نامي» رأسه فيرى الرياح تلطم أسلاك مُحرّرة من جسم طبق هوائي صدئ، وكأن الكائنات الفضائية قد شرعت أخيرًا في توجيه رسائلها. يركز «نامي» على إيقاع صوت الضربات لكنه لا يتوصل إلى شيء. ويظل قضيبه منتصبًا.

****

يُحضِر «أليكس» شيئًا ما من عند الروس. بضعة صفحات مجتزأة من كتالوج ملون. بها سيدات يرتدين

ملابس داخلية، يبتسمن في الكاميرا، ويعقدن شفاههن. لقد أخذها مقابل علبة حشو لبندقية صيد عثر عليها «نامي» في سيارة عسكرية مغلقة. يوجد خلف بيتهم مرحاض. يرى منه «نامي» من فتحة مستديرة حقلًا صغيرًا يفرغون فيه كل ربيع محتوى المرحاض النّتِن. الحقل مليء بالعناكب والجرائد القديمة. يتكئ «نامي» في الحمام على جداره القذر، ويفكر في «ظاظا». يمسك بإحدى يديه صورًا لسيدات روسية ممتلئات الجسد يرتدين ملابس داخلية، ويستمني باليد الأخرى. فيسمع صرخة.

ألا ترين؟!

تزعق امرأة الخباز وهي تزيل القشر عن حبات الفاصوليا مع جدتي التي خبطت السلة بذراعها. تدحرجت حبات الفاصوليا البنفسجية فوق المنضدة المغطاة بمفرش بلاستيكي مُلوّن.

تجيبها الجدة وهي تلتفت إليها بفزع:

اصمتي! مازلت أرى بما يكفي كي أتابع الشّبَاك، وأهتم بالصبي. اصمتي! أعرف جيدًا أنكِ عرجاء.

تغضب زوجة الخباز، وتواصل تقشير الفاصوليا في مئزرها. تصمت برهة، ثم تصيح:

أنتِ عمياء لا ترين!

فتجيبها الجدة بحدة:

قوليها ثانية وسأخنقك بلباسكِ هذا أيتها الحمقاء.

تنزل دموع زوجة الخباز خلف جزيلة شعرها الأبيض المنسدلِ، لكنها تواصل تقشير الفاصوليا بعصبية، وبعد لحظات تنهض منتفضة، وتصب نصيبها من الفاصوليا في مئزرها، وتنصرف دون أن تنبس بكلمة.

في نفس المساء تصطدم الجدة في إحدى درجات السلم عند مدخل البيت، فتنكسر عظمة حوضها. فتبكي من الألم. تسب وتلعن بصوت مكتوم. ثم تجر جسدها إلى السرير حيث يعثر عليها «نامي»، فيقول:

«سأتصل بالطبيب»، ثم يهرول ناحية الباب، لكن جدته تصرخ فيقدِّرُ أنها ستكسر ساقه قبل أن يستدعيه. يجلس «نامي» عند عتبة الباب وقد أسقط في يده. خائف من أن يذهب فتسوء حالة جدته. وخائف من أن يعود إلى الداخل لأن جدته تصرخ متفوهةً بأفظع الشتائم وتنوح من الألم. يزيل ترابًا ناعمًا علق بين أصابع قدميه، ويصنع منه كومة صغيرة، ويغرس فيها قشة جافة. اشتدت الرياح ومازال «نامي» جالسًا عند عتبة الباب ينتظر أن يحل الظلام، ثم ينسل إلى داخل البيت في هدوء.

اسقني ماءً يا ولدي!

تهمس جدته، بينما هو ينتفض من البرد. جدته تتحدث وكأن صوتها قادم من القبر، وتبدو على هيئة من في القبور. شاحبة مثل حائط طلوه مؤخرًا باللون الأبيض. ترفع جسدها مستندة على مرفقها. تلمع عل جبينها حبات العرق، حتى في الظلام. يصب لها «نامي» ماء من الدلو بالمِغْرَفة فتبتلعه الجدة بلهفة. المرض والشيخوخة باديان عليها. وأسنان «نامي»

تصطك. يجلس طوال الليل على الأرض بجوار سرير جدته، ويغشيه السَبات. يستيقظ كلما تتوجع جدته، وكلما طال صمتها. في الصباح يكاد يستسلم للنوم العميق، إلا أن أصوات رجال تصيح، وطرقات على الباب حالت دون ذلك.

يدخل أربعة رجال. إنه طبيب الحي، ومدير الجمعية، ومدير المدرسة، والرابع يضع فوق رأسه قبعة شامانية تقليدية. لكن لا أحد يشاركه الحديث ولا يلتفت إليه. وزوجة الخباز تقف عند الباب وتكاد تكتم أنفاسها.

تقول جدته بصوت واهن وعيناها تلمعان من الدهشة:

ماذا حدث يا أحبائي؟

يقول لها مدير الجمعية مازحًا:

أيتها الجدة! لماذا أنتِ في السرير ولم تنهضي حتى الآن. هل قررت البقاء فيه إلى الأبد؟

إنه رجل عريض المنكبين، بطين، وذو مؤخرة منكمشة.

تجيبه الجدة، بصوت متهدج:

يبدو أني قد استغرقت في النوم.

أرني نفسكِ أيتها الجدة!

يقول الطبيب وهو يرفع الغطاء عن الجدة بكل عزيمة. يبعد وجهه عندما تفوح رائحة المرض والعرق من تحته، لكنه يرسم على وجهه ملامح الطبيب، ويميل عليها. ينظر في عينيها، وفي حلقها. يقيس ضغطها ودرجة حرارة جسمها. وعندما يلمس مكان الكسر تحبس الجدة أنينها. ومازال الرجل ذو القبعة واقفًا وراء الطبيب.

يسألها مدير الجمعية بمودة:

كم عمركِ أيتها الجدة

أربعة وخمسون.

تجيبه الجدة هامسة. فتصيح فيها زوجة الخباز:

لا! كان هذا من زمن بعيد أيتها الكاذبة.

يلتفت الطبيب خلسة نحو مدير الجمعية، ويهز رأسه.يتوجهون جميعًا نحو باب البيت إلا الرجل ذا القبعة. يظل واقفا عند السرير. «نامي» يجلس صامتًا بجوار السرير، وهو يمسك يد جدته الدافئة. ذكّرَته يدها بطائر أمسك به يومًا. كان قلبه الصغير يدق بسرعة.

يسألها بصوت خفيض:

ماذا حدث يا جدتي؟

تلتقط الجدة أنفاسها المتهدمة ولا تجيب.

جدتي؟!

أبعدني عن هذا المكان، بسرعة!

ماذا؟ إلى أين آخذكِ؟ وكيف؟

صوت دمدمة مكتومة. الرجل ذو القبعة يبدأ في التأرجح وهو في مكانه، ويحرك يده عاليًا وهو يحمل فيها شيئًا ما، يبدو وكأنه عظمة، ويغني.

ما هذا يا جدتي؟

تنفجر الجدة فجأة بالنواح والعويل مثل ذئبة ، وتعلو نبرة غناء الرجل الشاماني. وسط تلك الأصوات المتنافرة يصم «نامي» أذنيه، ويشرع في الاهتزاز إلى الأمام والى الخلف. العويل لا يتوقف، فينهض وينصرف خارج البيت مسرعًا. يصطدم عند عتبة البيت بزوجة الخباز، فتسقط، وترتطم بالسياج الحديدي، فتصرخ من الألم. يهرول «نامي» إلى الحديقة، ثم يدخل المخزن الذي يشم فيه رائحة النفط. يسحبُ نفسًا عميقًا، ثم يعُدّ حتى عشرين. بعدها يحمل مطرقة جده التي يستعملها في أعمال النجارة، ويقطع بها أشياءً على سبيل التدريب؛ فأرة النجار، وأوتاد خشبية، وعصي لربط حزم الفاصوليا.

بالأمس جلس مع جدته لتناول الغذاء عند عتبة الباب. أكلا معًا البطيخ، وعصيره يسيل فوق ذقنيهما. ضحكت جدته عندما ارتفعت بطن «نامي» في لحظة، وكادت تسقط من فوق المقعد من شدة الضحك. مسحت دموعا سالت وهي تضحك في طرف مئزرها الأسود، وطاردت الدبابير باليد الأخرى. أما الآن فقد تجمع الناس عند باب بيتهما. احتشد الجيران وأناس يراهم لأول مرة. الرجال صامتون، والنساء تثرثرن بأصوات حادة. والأطفال يقفون فوق سياج نبتت فوقه شجيرات اللبلاب.

يخرج «نامي» وهو يعض على أسنانه ويحمل المطرقة في يده ويتوجه نحو مدخل البيت. فيصمت الجميع. يقف الطبيب من جديد بجوار سرير جدته، ويمسك بيدها. ويقول لها شيئًا ما بصوت منخفض.

يسأله «نامي» بهدوء:

ما الأمر أيها الطبيب؟ ماذا يحدث؟ لماذا كل هؤلاء الناس هنا؟ لقد كسرت ساقها، وهذا كل ما في الأمر!

نعم، هذا كل ما في الأمر.

كُسِرت ساقي أنا أيضًا ذات يوم.

ابتسم الطبيب، وسأله:

كم كان عمركَ.

لا أعرف، ستة أعوام.

تنهد الطبيب بودٍ، وهز رأسه. الجدة ترقد وتغلق عينيها، تتلاحق أنفاسها سريعًا، ولا تستجيب لنداءات «نامي» عليها.

يصيح «نامي»:

لن ترسلها إلى البحيرة، صحيح؟ لن ترسلها، فهي بكامل صحتها، أليس كذلكَ يا جدتي؟!

حمالات معدنية يحملها المسعف من المركز ترتطم بإطار الباب، والناس يتراجعون أمامها وكأن رجل ذا مقامٍ مهيبٍ قد وصلَ. ويصمت الحشد شيئًا فشيئا.

يقول الطبيب غاضبًا:

أعطيناها مسكنًا. هل تظن أننا حيوانات؟ الآن ابتعد!

يتقدم «نامي» خطوة من الطبيب، ويرفع المطرقة إلى أعلى. يرمقه الطبيب بكل برود.

ماذا ستفعل أيها الصبي؟

يحملقُ «نامي» في الطبيب، ثم تتوتر ذقنه. وتسقط يده التي تحمل المطرقة، فيدفع الطبيب «نامي» بينما المسعف يضع جدته في عربة الحمالة. والجدة تتألم. يتراجع الحشد من جديد، بكل احترام عندما يعود المسعف بالحمالة خارج البيت.

****

الرياح تهب، والممشى يتصدع تحت وطأة مئات المواطنين الذين سقط بعضهم في القاع الجاف. النساء تحملن الزهور، والرجال يتطلعون إلى السماء متجهمين، إلى البحيرة؛ الجميع يترقب التعليمات.

قارب بدون مجاديف مزين بشرائط مزركشة، تلطُمُهُ الأمواج فيرتطم بقوارب الصيادين. الجدة مستلقية فيه، وجبينها يندَى عرقًا، وعيناها مخبأتان خلف شريط أزرق. لاحظ «نامي» أن يديها ترتعشان فوق صدرها.

يومئ المدير في لحظة، فيشرع الشامان في دمدمة مكتومة. النساء تنضم إليه بنغمة أعلى، يردّدنَ ما يقوله، بينما يرشقون الجدة بالورود، وأعينهم تلمع. يبدو مشهدًا حزينًا. فالزهور في هذا الوقت من العام تكون غالبًا ذابلة، وملطخة ببقع بنية، أو تكاد تكون جافة. وتنطلق مقطورة يجرها محرك.

ينسل «نامي» صامتًا بين حشد البشر الذي يقفون بجواره، ثم يقفز في القارب، فيتأرجح بقوة. يصيح فيه الرجال، يميل «نامي» وينادي على جدته كي تستمع إليه، لكن صوته يتوه وسط هدير المحرك، وعويل الرياح.

كيف لي أن أمنع هذا يا جدتي؟ سأبقى معكِ فوق هذا القارب. حسنًا؟

تمسك الجدة بيده وتقبلها.

لن تحول دون هذا يا بني. يجب أن تسير الأمور كما ينبغي كي لا تغضب الجنيّة. فهي مازالت غاضبة.

جدتي!

حبيبي!

ماذا أنا بفاعل؟

ستتجاوز الأمر.

هل تشعرين بألم؟

نعم.

أحضرت لكِ شرابًا.

يدس في يدها زجاجة نصف لتر من الويسكي المقطر في البيت، ثم يقبلها على جبينها.

تنفجر جدته بكاء، وتقول له:

أشكرك يا بني! أشكركَ! حان الوقت لكي تنصرف يا «نامي».

يقفز «نامي» من القارب، ويسبح حتى يصل الشاطئ حيث تناثرت زهور قرمزية، وورود بنفسجية. فمه ممتلئ بالدم من أثر اللدغات. يخوض في الماء، ثم يخرج منه، وينصرف بعيدًا. ينطلق الزورق يجر وراءه قارب الجدة المزين، ويختفي وسط سحابة دخان محرك الديزل. يسير قارب الجدة خلف الزورق متثاقلًا، يقفز وسط الأمواج ويكاد ينقلب رأسًا على عقب. لكن الزورق يجر القارب لمسافة مئتين مترًا تقريبًا، ثم ينفصل عنه، ويعود إلى الشاطئ. يتباعد القارب تدريجيّا نحو الأفق. والرجال فوق الممشي يسكبون كؤوس الخمر في نخب جنيّة البحيرة، ثم ينصرفون في صمت. «نامي» لا ينظر إلى القارب. إنه

غاضب: يظن أن جدته كانت ستقول له شيئًا ما قبل رحيلها ، شيئًا هامّا سيكون في حاجة إليه في حياته. يذهب إلى حظيرة الدجاج، ويذبح واحدة من ثلاث دجاجات تبقت.

****

تراود «نامي» أحلام غريبة وثقيلة. توقظه خبطات على باب البيت في الطابق الأرضي، فينتفض. يوشكُ قلبه أن يقفز من صدره. أين هو؟ وفي أي فصل من فصول العام؟ أين جدته؟ لماذا لا يشم رائحة الخبز المحلي الطازج قادمة المطبخ؟

يجلس فوق سريره، ورأسه في كفيه. شيئًا فشيئًا ينتبه إلى ما حدث. ينزل إلى الطابق الأرضي، يجد نفسه غارقًا في عرقه، ورائحته الكريهة تزعجه. امرأة نحيفة تقف وسط المطبخ وهي تحتضن طفلًا صغيرًا. وحولها أربطة من الملابس وبضعة صناديق كرتونية. تومئ نحو «نامي»، وتقول على استحياء:

طاب يومكَ!

يقف من خلفها جسد مدير الجمعية الضخم، يصيح قائلًا:

ستقيم معنا الآن هنا أيها الصبي!

ثم ينفجر الطفل في البكاء. يضحك المدير ويضيف:

انتبه أيها الشقي! وإلا أغرقتكَ في البحيرة!

يبدأ في حمل أربطة ملابسهم إلى الطابق العلوي. تبدأ المرأة في إعداد الشاي. ثم تتوجه متثاقلة نحو الطاولة بعدما يعود المدير، وتضع قدميها فوق المقعد مرتدية حذاءً طويل الرقبة. ترتشف الشاي، ثم تهز رأسها بقلق، وتقول:

لديكم فوضى كبيرة في الحديقة أيها الولد. سوف تتعب كثيرًا إلى أن تعيدها إلى حالتها الطبيعية. لقد دللتكَ جدتك كثيرًا، أليس كذلك؟

لا يجيب «نامي»، وتثور في رأسه نزوة الغضب. ومن جديد ينفجر الطفل بالبكاء.

****

لم يمنع «نامي» نفسه من الصراخ وهو يرى الطفل عاريًا لأول مرة. فلديه في وسط صدره يد ثالثة، عبارة عن ساعد وكف يتحرك بطريقة منفصلة عن ذراعيه العاديين، خمسة أصابع تتحرك في كفها هذا وكأنها ديدان محفوظة في علبة. لكن الطفل سعيد. فعندما يبتسم له «نامي» يتجاوب معه، ينظر إليه، فيأخذه «نامي في حِجْره، يداعبه، ويرفعه عاليًا، فيصرخ الطفل من السعادة. أحيانًا يهز يده الثالثة، فلا يملك أحدهما نفسه من الضحك. الطفل الآن نائم مع أمه في سرير «نامي» الذي غشيه النوم فوق أرض المطبخ، كثيرًا ما كانت جدته تضع سريرها هنا. وفي المطبخ أيضًا ينام المدير الذي يغط بصوت عالٍ، تمامًا مثل جدته. هذا الغطيط يشعره ببعض الطمأنينة أثناء الليل.

راح «نامي» يعزق أرض الحديقة على مدى بضعة أيام. «نامي» بعدها بدأت عضلاته تؤلمه من استخدام المجرفة والمعزقة، وظهرت بثور في يديه. أحيانًا لا

يذهب إلى المدرسة بسبب العمل في الحديقة، لكن هذا لم يهمه كثيرًا. زوجة المدير امرأة طيبة، تلقي على «نامي» التحية، وتتمنى له ليلة سعيدة، وأحيانًا تخيفه وهي تضع على وجهها قطعة ملابس. إنها نحيفة، وقبيحة، لكن صوتها جميل. يجلس «نامي» بجوارها، يستمع إليها كلما أنشدت الأغاني لطفلها. ليست ماهرة في الطهي مثل جدته، لكنها على الأقل لا تتركه جوعانًا. أحضر المدير عنزتين، فكان «نامي» يجد في كل مساء حليبًا طازجًا ليشربه مقابل أن يحلبها، وأحيانًا يطاردهما في المطبخ الذي تحبان الدخول إليه. في كل مرة تنجحان في التسلل إلى المطبخ، تقفان فوق الطاولة، وتمأمئان عليه بشعور المنتصر. وتظل رائحة الماعز في المطبخ عالقة لوقت طويل. في المساء دائمًا يختفي «نامي». يقول إنه ذاهب إلى شاطئ البحيرة لجمع الأخشاب التي لفظتها مياه البحيرة. يمشي مع «ظاظا» فوق قاعها الجاف ذهابًا وإيابًا، أحيانًا يقطعان غصنًا جافًا، أو قطعة خشب من أحد الصناديق. أحيانًا يعثران على حذاء مطاطي، وذات مرة وجدا ميدالية ذهبية. كانت مجرد

قطعة حُلِيّ غير أصلية، لكنهما لا يعرفان الفرق بين هذا وذاك. لذلك حملتها «ظاظا» في رقبتها. يتعانق كفاهما كلما اختفيا عن الأنظار. لكن كل منهما يتجنب النظر في عيني الآخر. وعندما يلتقيان في الصباح وهما في طريقهما إلى المدرسة يسترقان النظر، ثم يخفض كلاهما وجهه على الفور.

صارت لقاءاته ب «أليكس» نادرة. صار يرى أن غباءه يزداد مع الوقت.

****

أين كنتُ؟

لا يرد «نامي». ليس عن تحدٍّ، بل لأن المدير لا ينتبه إليه.

أسألكَ أين كنت؟

لكن «نامي» غرق بأفكاره في أرض فضاء وسط الأحراش. هناك قرر استدعاء كل قواه كي يلمس بيده

ثدي «ظاظا». فعل هذا بغتة، وكأنه فعلها عن دون قصد. تقدم منها من الخلف، ثم قبض بقوة على ثديها الأيمن. لم يكن ثدي «ظاظا» كبيرًا، لكن لا يهم. تسمرت في مكانها، وابتلعت لسانها لوهلة، ولكنها لم تهرب منه. تركت ثديها في راحته. ثم سعلت، وواصلت حديثها:

لكنها بالتأكيد عادت من العاصمة في حالة مزرية.

بينما «نامي» يشعر بدقات قلبها الهائجة في راحته، فتغمره سعادة لا توصف.

أين سأكون؟ على الشاطئ لجمع الخشب بالطبع!

لطمه على وجهه.

لكنكَ لا تحمل أي خشب.

لكني جمعته!

لطمة ثانية.

أتراني غبيّا؟ أين كنت؟

رفع «نامي» هامته بكل تحدّ، وقال:

هذا أمر يخصني.

أسألكَ للمرة الأخيرة. أين كنت؟

هذا أمر لا يعنيك.

ضربة بقبضة اليد في بطن «نامي» لم يتوقعها، تجعله يميل.

أين كنت؟

يجيب «نامي» بصوت متهدم:

أنت إنسان شرير. لذلك أعطتكَ الجنيّة مسخًا.

يضربه المدير بقبضة يده في كتفه، فيسقط «نامي» فوق الأرض. وبحركة يعرفها جيدًا يسحب حزامه من سرواله، ويشرع في ضرب «نامي»:

أنت أيها الوقح، ناكر الجميل! أنتَ يا من كنت السبب في كل المصائب في كل مكان تحل فيه، ستعلمني؟ خذ أيها القذر، سأجعلكَ تنزف دمّا!

يشعر «نامي» بالفعل أن الدم ينزف من فمه، ويمنعه الأدرينالين من أن يشعر بالألم كاملًا. لكنه الآن يعرف أن الألم سوف يزداد بعد قليل. يتحسس بلسانه سِنّه الذي انخلع. زوجة المدير تقف عند الباب، وهي تمسك طفلها الباكي في أحضانها. تنادي بصوت استجداء:

يا «بوريك»!

يفلت «بوريك» الحزام من يده بعد أن بلله العرق، ونال منه الإرهاق. يقف فوق «نامي» وهو يفرج ساقيه، والشرر يتطاير من عينيه.

أخبرني أين كنت!

يستلقي «نامي» على ظهره وهو يلهث، ويعقد يديه فوق صدره.

تفوح منكَ رائحة الخراء أيها المدير. يبدو أنكَ دسته بقدمكَ.

ينظر إليه المدير بريبة، ثم يوجه إلى صدر «نامي» ركلة بقدمه المتعب.

ستظل كومة من الخراء مثل ذلك الذي ضاجع تلك العاهرة، أمكَ!

يغادر المدير البيت، وهو يدفع المرأة بكل عنف. يرغب «نامي» في أن ينهض، لكن جسده يؤلمه بشدة.

يهمس في المرأة قائلًا:

غَنّي لِي!

لكن المرأة تستدير، وتنصرف.

يشعر «نامي» وهو فوق الأرض برياح الخريف تتسلل إلى البيت عبر شقوق الأخشاب. آثار لطمات الحزام تؤلمه وكأنه رشّ عليها رماد نار. في الليل يحبس

المدير «نامي» في حظيرة الفراخ. الظلام فيها محدق، والبرد شديد. «نامي» يرتعد من البرد والغضب. والدجاج حوله ينقّ في ضجر.

****

يمكنه أن يعود إلى البيت في الصباح. جسده متيبس، وهو عاجز عن الحديث. تريد زوجة المدير أن تعطيه حساء الشوفان، لكن المدير يمنعها.

لن يأكل سوى الخبز حتى يتعلم الأدب.

الخبز صلب، لكن أسنان «نامي» تطحن الفتات الجاف.

سوف يتعلم، أليس كذلك؟

يومئ «نامي» في صمت. ويداه ترتعشان رغمًا عنه. وزجاج النوافذ يهتز، تمر سيارة نقل عسكرية بالقرب من البيت.

****

تحمّل الأمر لمدة أسبوع. راح «نامي» يحرث حقلًا صغيرًا إلى أن سال الدم من بثور في يديه. يلعب مع الطفل ذي الأيادي الثلاث، ويتمنى رؤية «ظاظا». عندما يكون المدير خارج البيت تعطيه زوجته أحيانًا قطعة لحم أو فطيرة محلاة. لا يعلّق، فقط يأخذ ما تعطيه إياه في صمت.

أمسك به المدير ذات يوم وهو يأكل حساء العدس. فضرب المقعد الذي يجلس عليه بقدمه حتى ارتطمت أسنان «نامي» بالطبق. ثم قال وهو يكشر عن أنيابه:

امرأة قبيحة، ناكرة للجميل!

ثم يلطم زوجته في وجهها بقوة فتسقط على الأرض. المرأة تمسك وجهها، وتزحف على بطنها فوق أرض الغرفة لتنزوي في أحد أركانها.

يواصل المدير توبيخه لها:

فكري فيمن يطعمك أنتِ وهذا المسخ ابنكِ! الإنسان يفعل الخير، ولا يجنِي لقاءَهُ سوى الطعنات في ظهره.

سامحني يا "بوركا"!

يهز المدير رأسه هزة خفيفة متسامحة. ثم يقول ل«نامي»:

إلى حظيرة الفراخ! طالما أردت المزيد من العقاب.

****

بقي «نامي» محبوسًا في الحظيرة طوال الوقت. يتشارك الماء مع الدجاجتين، ويقتات على بقايا الطعام في المطبخ. ولا يذهب إلى المدرسة. يتكئ بظهره على الحائط، ويشمّ رائحة الدجاج النتنة، وينظر إلى السماء من فتحة بين ألواح الخشب. الفرختان في البداية تشعران ببعض القلق، لكن بعد بضعة أيام تعتادان عليه. يسمع ذات يوم صوت مدرسة الفصل الحاد وهي تسأل عن «نامي»، فيجيبها المدير بصوت مازح بأنه لا يعرف. لقد اختفى هذا الشقي، إنه مثل أمه، أنتِ تعرفينها! تضحك المدرسة ضحكة خافتة، ثم تطلب من المدير أن يرسل «نامي» إلى المدرسة فور عودته لأنه أذكى زملائه، وأن الفصل دونه لا طعم له. يتعجب

المدير من قولها، ويسألها إن كانت تقصد شخصًا آخر. لكنها تعاود الضحك الخفيف المَرِح، فيعرف منه «نامي» أن المدير الآن يتحسس مؤخرتها، كما يفعل مع نساء أخريات يسمحن له بذلك في المدينة الصغيرة.

دائمًا في كل مساء يرفع باب الحظيرة عن المفصلات، ثم يتسلل عبر حقل صغير إلى خارج البيت ليلتقي ب«ظاظا» عند المرفأ. تتناقص دقائق من اللمسات الحارة يومًا بعد الآخر، وتضطر «ظاظا» إلى الانصراف قبل غروب الشمس. يعود «نامي» موجوعًا من الشوق، يشتم يديه التي علقت فيهما رائحة «ظاظا» التي تشبه رائحة البطيخ. يدخل إلى غرفة المؤن مع حلول الليل ويأكل ما يحلو له. رأته زوجة المدير ذات مرة وهو هناك؛ فَمُ «نامي» ممتلئ بالطعام، ويمضغه على عجل. أخذت المرأة تتابعه في صمت ويداهُ تتشابكان، فيراها «نامي». يضع السبابة على فمه، فتومئ له المرأة. تتركه يكمل طعامه وهي تتابعه في هدوء، ثم تسمح له بالخروج، وتغلق باب غرفة المؤن خلفه.

تَرَبّت المرأة على كتفيه وهو يمر بها، وتحاول أن تلمس رأسه، لكن قامة «نامي» قد طالت، فلا تصل إليها. تضع يدها في جيبها، وتخرج منها مصاصة التصقت بغطاء من السلوفان بطعم زهرة البنفسج أو السكر المحروق. يهز «نامي» رأسه. لكن زوجة المدير تظل مبتسمة، وتعيد المصاصة إلى جيبها. غدًا ستعطيها للطفل ذي الأيادي الثلاث.

****

كلما خرج مدير الجمعية التعاونية من البيت لمتابعة عمليات الحرث ونثر البذور يغادر «نامي» الحظيرة، ويجلس تحت أشعة الشمس. يتابع المهندسين وهم يخرجون من الحي مع أسرهم، ويضعون الحقائب ولوحات عليها أحراش شجرة البتيولا في سيارات «لادا» و«چيب»، ثم يختفون وسط التراب على الطريق الإسفلتي. يرى زملاءه وهم ذاهبون إلى المدرسة. يرى أيضًا «ظاظا»، فينقبض صدره. صار الجوّ باردًا، والنهار قصيرًا. وباتت الحظيرةُ باردةً أثناء الليل.

يبدو أنه لن يتمكن من رؤية «ظاظا» عما قريب. فقد بدأ وقت الغروب يقاربُ موعد انتهاء المدرسة. في كل مرة يضمها إلى صدره، بينما هي لا تكف عن الحديث. تسوي تنورتها، أو تدفع خصلة شاردة من شعرها خلف أذنها. تبدو ناعسة بعض الشيء. يقبلها «نامي» في عينيها، وأذنيها، ورقبتها. يشعر بالانزعاج من توتر أعصابه. يدفع «ظاظا» نحو قاعدة جهاز الإرسال الفضائي. يتحسس فخدها، فترفع له التنورة وهي لا تتوقف عن الحديث عن الغزوات التي يشنها شباب المدرسة على الشقق المهجورة في الحي والتي تدمرت عندما انتقل إليها مستأجروها. الآن استبدلوا زجاج النوافذ المكسور بأوراق الجرائد.

وجه «نامي» غارق بين صدري «ظاظا» الصغيرين. بينما هي تدلك قضيبه على استحياء. يشعر بأنه لن يُطيقَ، وسيختنق، وأن ما يحدث فاق قدرتهُ على التحمّلِ. يرفع رأسه على مهل كي يلتقط أنفاسه أخيرًا وينجو بنفسه، فيرى جنديين روسيين يحملان مدفعين. أحدهما ضئيل البنية، بشرته داكنة، والثاني

مفتول العضلات أشقر. يبدو طيب القلب، يقضم ظفر إبهامه الأيمن. تخفض «ظاظا» من آهاتها، وتكتم أنفاسها للحظة؛ هذه هي المواقف التي تحذرهن أمهاتهن منها قبيل النوم كل مساء: احذري من الجنود الروس أيتها الفتاة! فهم شديدو الغباء، متعطشون لممارسة الجنس طوال اليوم. إن التقيتهم صدفة في مكان ما فلن تفلِتِي سالمة.

تنادي على نامي بصوت خفيض:

«نامي»!

يشير الجندي الصغير الأسمر بماسورة البندقية بأن ترفع تنورتها. بات واضحًا للجميع ما هو قادم.

نامي!

يقف «نامي» وهو يقبض على أسنانه، ويعتصر قبضة يده. يقول «نامي» وهو يجرها من يدها:

هيا نعود إلى البيت!

ثم يتوجهان صوب البيت، بمؤخرتين عاريتين أمامَ الجنديين. يخطوان خطوتين فيعلو بعدها صوت طلق ناري. لقد أطلق الجندي الصغير النار في الهواء. اعتاد الناس على سماع صوت الطلقات في كل يوم. كانت أحيانًا للتدريب، وأحيانًا أخرى لخلل في النظام، أو عندما يثمل الجنود، ويلعبون القمار على الطريقة الروسية. أحيانًا يتبادلون إطلاق النار أو يقوم أحد الجنود الجدد أثناء الدوريّة الليلية بإطلاق النار على أحد المارة. من المؤكد أن صوت الطلقات لا يسترع انتباه سكان المدينة الصغيرة.

يتوقف «نامي» و«ظاظا». ترتعش أيديهما، وتنتهي هزاتها في أطراف أصابعهما التي تتعانقان بحثًا عن المساندة. تحرر «ظاظا» يد «نامي» وترفع تنورتها دون أن تلتفت وراءها. يتقدم الجندي الصغير الأسمر منها، ويمسك بها من الخلف، ويقبض على ثدييها. تغلق «ظاظا» عينيها بقوة، وبينما ذقنها يرتجف.يقول الجندي الصغير:

راقب الطريق يا «سرجيو»!

فيومئ له «سرجيو»، ذلك السمين الطيب. يتأبط الكلاشينكوف بطريقة خرقاء وإصبعه فوق الزناد، بينما يقضم السبابة بيده اليسرى. يتخيل «نامي» مشهدًا، يرى نفسه يطرح الجندي السمين أرضًا بالبندقية الآلية، ثم يجبر الجندي الحقير الآخر على أن يركع أمامه، ويقطع قضيبه ويسحقه. عندما يفتح عينيه يرى ثديي «ظاظا» الأبيضين بحلمتيهما البنيتين يتأرجحان في الهواء، وردفي الجندي تهتزان، ردفه الأيسر يحمل ندبة قبيحة تذكره ببطيخة مشقوقة إلى نصفين. يمسك «نامي» رأسه بيديه وكأنه يريد أن يفجره. شعر وكأن عينيه ستخرجان من مقلتيه. لم يشعر بشيء آخر. يغطي أذنيه كي لا يسمع صرخات «ظاظا». لكن «ظاظا» لا تصرخ. إنها صامتة تمامًا، عيناها مغلقتان، جانبا شفتيها بهما آثار عضات. لكنها لا تئن.

يقول الجندي الصغير وهو يسحب قضيبه من «ظاظا»:

هل أعجبك المشهد أيها الغبي؟

ينظر إلى قضيبه، ويهزه بكل فخر، ثم يعيده إلى داخل سروال زيه الملوث. ويومئ لزميله:

تعال يا سرجيو! إنه دورك!

يشرع «سرجيو» في فكّ أزراره. ينظر أمامه بقلق. فيستغل «نامي» لحظة غفلته، ويعدو مثل الطلقة. يتدحرج من فوق التل، ويمرق وسط الأشجار إلى أن يصل حافة الغابة. هناك ينتهي الطريق الجبلي الذي يمر بالمدينة الصغيرة. يعرف أنه عندما يصل إلى الميناء فلن يجرؤ الروس على إطلاق النار عليه هناك. يعرف أيضًا أنه لو رأى قضيب «سرجيو» منتصبًا قد يصاب بالاختناق. يسمع صوت «ظاظا» من خلفه يناديه:

«نامي»!

****

يبقى «نامي» في الحظيرة لا يغادرها لمده بضعة أيام متوالية. ينام مهمومًا. كلما أغلق عينيه تتراءى له

صورة ثدي «ظاظا» ناصع البياض. يشعر بالقرف منه ومن «ظاظا». يريد أن يستحم: يتسلل من الحظيرة كل مساء، ويستحم في مياه البحيرة الباردة، فتزداد حساسية جلده في كل يوم، وتغطيه البثور. تشتد البرودة أثناء الليل، وفي النهار يغطي الثلج مَجْرَى مياه صالحة للشرب. يضم «نامي» الدجاجات إليه فلا تقاومه، يستدفئ كل منهما بالآخر.

يقول لمدير الجمعية التعاونية الذي يحمل له بقايا لحم على عظم:

الجو هنا باردا!

يهز المدير رأسه، ويقول قبل أن يعتدل:

أنا أعرف.

فيجيبه «نامي» وفي صوته نبرة عزم أجبرت المدير على أن يلتفت إليه:

لن أبقى هنا بعد اليوم.

ثم يؤكد على كلامه قائلًا:

أقول لكَ إني لن أبقى في هذه الحظيرة.

يعوجّ وجه المدير دون أن يعلق.

قال «نامي» بصوت منخفض:

أنا أغادر الحظيرة كل ليلة، لأنكَ غبي ولا تستطيع أن تغلق بابها جيدًا، وأضاجع امرأتكَ. يمكنني أن أنصرف وقتما أشاء. في استطاعتي أن أذهب إلى مركز الشرطة، وفي نفس اليوم الذي يتأكدون فيه من أنك حبستني سيجلسونكَ فوق القارب، ويرسلونك إلى جنيّة البحيرة. في مقدوري أن أشعل النار في البيت فوق رأسكَ أثناء الليل.

يعبس وجه «نامي» بينما المدير يرمقه دون أن يجيبه. فيكرر «نامي»:

لا أريد أن أبقى في هذه الحظيرة النتنة.

بعد تلك الأيام التي قضاها هنا في الحظيرة بدأ يشعر بالاختناق من رائحة الجاج. وأخذ يفرك راحتيه بحماس. تدفق الدم إلى رأسه بمجرد أن انتبه إلى أنه سيغادر البيت الذي نشأ فيه. يشعر أن عينيه قد تضخمتا داخل مقلتيه.

سأعفو عنكَ. اخرج من الحظيرة، ولا تعد إليها بعد اليوم.

يقول المدير على عجلة. فيهز «نامي» رأسه، وبحركة واحدة ينزع الباب عن مفاصله، ثم يطأطئ رأسه ويتوجه نحو المدير الواقف أمام الحظيرة. السماء قاتمة والهواء بارد. كانت الثلوج تتساقط في مثل هذا الوقت عندما كان صغيرًا. وكان «نامي» يتزلج مع الأطفال فوق السفح المجاور لمدرسته. أما الآن فلم تعد الثلوج تظهر في الشتاء منذ بضعة سنوات، ولم تعد الأمطار تسقط، لا في الربيع ولا حتى في الخريف.

يقول نامي وهو يتنفس بعمق:

سأرحل من «بوروس»

يجيبه المدير:

فكرة صائبة.

لكني سأعود إلى بيتي في أي وقت. وأحتاج إلى نقود.

حسنًا.

يخرج المدير حافظة النقود من جيبه، ويعطي «نامي» بضعة ورقات بنكية. وما أن يمد يده ليأخذها يجذبها المدير إلى صدره قليلًا، ويسأله:

هل نمت مع زوجتي؟

يبتسم «نامي» وهو يهز رأسه:

إنها امرأة قبيحة مثل اللصوص.

يقبض المدير وجهه، ثم يهز رأسه ويعطيه النقود. ليس بالكثير، لكنها هي المرة الأولى التي يمسك فيها

«نامي» أورقًا بنكية حمراء، وخضراء، وبالِية.

سأله المدير وهو يهز رأسه باستنكار:

لماذا لم ترحل من قبل؟

يهز «نامي» كتفيه. لا يمكنه أن يشرح للمدير، كم كان صعبًا عليه أن يرفض المتعة اليومية مع «ظاظا». صدره ينقبض. يذهب إلى البيت، ويجمع بعض الأغراض – سكين لتنظيف السمك، وكتابين من مكتبة المدرسة، وبطاقة استعارة، وصورة للعاصمة اجتزأها من إحدى المجلات، وشهادة فوزه بالمركز الثاني في مسابقة الأداء، وقميص، وسروال مناسبات، ومشط، وبضع صفحات اقتطعها من كتالوج للملابس الداخلية – يضعها جميعًا في حقيبة ظهر لجده كان يحملها معه في الرحلات المدرسية. اختفت المرأة والطفل ذو الثلاثة أذرع من البيت، ما أسعد «نامي» لأنه لن يضطر إلى توديع أحد.

يقول:

اكتب هذا.

يجلس المدير في المطبخ عند الطاولة، ورأسه في راحتيه. ينتفض قائلًا:

ماذا؟

اكتب أني أغادر البيت بمباركة منكَ وأني سأعود إليه، وأنه سيكون لي كما هو لكَ.

يالكَ من صبي وقح!

اكتب!

ينهض المدير متثاقلًا ويسحب من رف فوق النافذة حزمة ورق من وسط كومة ورقية عليها حجر. يجلس بعدها عند الطاولة ويفكر مليّا؛ ثم يكتب بضعة جمل، ويوقع عليها، ثم يطوي الورقة ثلاث طيات. «نامي» يقف منفرج القدمين خلف المدير، يشرب ماءً من الكوب، فيسيل فوق ذقنه. طعم الماء لاذع قليلًا. يملأ أحد جيبيه بالبيض المسلوق الموضوع في السلة فوق

الطاولة، ويصب في جيبه الآخر حبات عنب في طبق أعدوها لإطعام الطفل. يفرد الورقة، ثم يقرأها بعناية، فينقبض وجهه، ويقول:

ليس هذا هو المطلوب.

ثم يمد يده إلى الفرن ليأخذ كل اللحم المشوي في المقلاة، ويدسه في فمه وهو يمضغه بصوت مرتفع، بينما المدير غارق في عرقه يعيد صياغة النص. صار «نامي» راضيًا، فيدس الورقة في جيب حقيبة الظهر المصنوعة من جلد الأغنام الذي مازال معلقًا على باب البيت.

أنتَ صبي تافه، ولا تستحق من أي رجل بالغ آخر غيري أكثر من أن يمسح بك مؤخرته. لكني طيب. ولن تذهب أبعد من هذه المدينة.

يجيبه «نامي» دون أن ينظر إليه:

لقد علق خراء الدجاج على قميصكِ.

ثم يرتدي معطف جده، ويتأكد من ربطه حول جسمه. صارت ذقنه ملوثة بدهن اللحم.

يزيح المدير كومة من الأشياء أمامه: مَلّاحة من الزجاج الأصفر، وزجاجة عصير، ونظارة، وجريدة، وبيانات زراعية، وقطعة ورق صائد للذباب. ثم يضع رأسه على الطاولة وهو يتنفس بصعوبة وبصوت عالٍ. تضع زوجته يدها فوق كتفه برقة.

الجنيّة غاضبة يا «بوريك»، أليس كذلك؟ هذا لأنك تركته ينصرف، صحيح؟

اخرسي!

يصرخ فيها ويطاردها، فتهرب أمامه.

****

المعطف الثقيلُ يتعصرُ جسده لكنه يدفئه. بعد بضع أيام لم يعد يشعر بالبرد. لا يسير على الطريق، بل يمشي محاذيًا له. الأعشاب الجافة تتكسّر تحت

قدميه. سيغشى الشتاءُ كل مكان. لا يسمع سوى هدير المياه في البحيرة قادم من بعيد. ويرى خليطًا من ألوان ملابس الفتيات يتدفق من مدرسة البنات، ملابس صفراء، وبيضاء، وقبعات فيروزية اللون، وأوشحة فوق معاطف بألوان باهتة. ينتفض جسده، فيشيح بنظره سريعًا. لا يرغب في أن يرى «ظاظا» بينهن. يشعر بمرارة على لسانه. فيدسّ في فمه بضعة حبات عنب، ويظل يمتصها لبعض الوقت، ويقلبها على لسانه.

يرى من بعيد تمثال الزعيم وقد فقد يده اليمنى التي كانت منتصبة. فتغمره السعادة.

يجلس في الحانة الليلية بضع روادها الذين لجؤوا إليها وأغلقوا الأبواب. سحابة من الدخان الأزرق الداكن عالقة في الهواء على ارتفاع صدر «نامي». موظفة البار تغني بصوت خفيض، وقدماها فوق أحد المقاعد. شفتاها متوردتان من أحمر الشفاه كأنّ جرحًا داميًا أصابهما. ترمق «نامي» دون أن تبدو عليها الدهشة.

إلى أين أيها الصبي؟

أنا ذاهب إلى العاصمة.

لا يوجد ما يدفعكَ للبقاء هنا، أليس كذلك؟

يهز «نامي» كتفيه.

يؤسفني ما حدث لجدتكَ. كانت امرأة طيبة!

أتشرب قهوة!

نعم!

تقوم المرأة متكاسلة، وتغلي الماءَ.

فعلت خيرًا أيها الصبي. هذه المدينة لا تطاق. ليتني أذهب معكَ.

يهتز «نامي».

نعم، ليتني أذهب! يجب أن أفعل. لكني سأبقى هنا.

يا «مارينا»! اتركي هذا الصبي واسْقِنَا شيئًا!

تهز «مارينا» يدها، وتقول:

اخرس!

راح الرواد يهمهمون عند الطاولة، عاجزين عن إظهار اعتراضهم. تصب «مارينا» القهوة في علبة معدنية، وتضيف بضعة قطرات من الخمر، وتخلطها ثم تقدمها ل «نامي». وجهها كبير، وأحمر، اختلط نسيجه بأوردة متفجّرَة.

هذا سيدفئكَ أيها الصبي. أمامكَ طريق طويلة. لكن الأمر يستحق العناء حتى لو مرّ هذا الطريق عبر البحيرة. الروس الرعاع اغتصبوا من جديد إحدى الفتيات. هل سمعت بالأمر؟

يهز «نامي» رأسه، ويجيب بأنه لم يسمع. ثم يطأطئ رأسه فوق كوب القهوة.

في كل مرة يحدث الشيءُ نفسهُ. يترقبونها في الغابة، يدمرون حياتها دون أية عقوبة لأن الشرطة والقضاء عندنا لا يملكون من أمرهم شيئًا. أغبياء تافهون!

تتنهد «مارينا»، ثم تفتح صندوق الخزينة، وتعطي «نامي» ثلاث ورقات بنكية.

خذ ، هذا مني لكَ!

لكن هذا كثير!

فتصرخ فيه:

وما الذي لا يعجبك في هذا؟

أنا آسف!

يهمس، ثم يدس النقود في جيب المعطف.

لا تظن أن أحدًا ينتظرك في الخارج، ويفتح لكَ ذراعيه.

تعال هنا!

يميل «نامي» على لوح البار، فتمسكه «مارينا» من رأسه، وتقبل جبينهُ. قبلة جافة من امرأة عجوز، بطعم البصل واحترام مفقود للذات.

تنادي وهي تعتدل:

يا «بافل»!

يستدير أحد الرواد. رأسه أصلع. منكباه منتفخان، وعلى ساعديه وشم حقيقي.

ألن تذهب إلى العاصمة قريبًا؟

يومئ الرجل برأسه. «مارينا» تتجه نحو الطاولة وهي تضع يديها حول خصرها، وتتفق معه على شيء ما. ثم تشير إلى «نامي» وهي تهز رأسها. أحيانًا ترفع صوتها، لكن «نامي» لا يفهم ما تقول. «بافل» يتفحص «نامي» وسط سحابة الدخان، وفي النهاية يضرب يده في الهواء معربًا عن استسلامه.

«بافل» سيغادر صباح غد إلى المدينة على حاملة النفط، وسيأخذك معه.

معقول؟!

نعم، نعم، نعم. إنه يدين لي بشيء. هكذا تسير الأمور.

يقول «نامي» باشمئزاز:

شكرًا يا «تيته»

لا تناديني بكلمة "تيته".

يشير «بافل» إلى الصبي، فيأخذ الولد حقيبته، وكوب القهوة السيئة الدافئ، ويجلس عنده. «بافل» لديه شعر كثيف على ساعديه، ووشم لصور جنيّة الماء، واسم «ناتالي». يتكئ بهما على طاولة مغطاة بمفرش بلاستيكي، وينظر أمامه بوجه عابس وحاجبين كثيفين. لم يسمع «نامي» منه طوال الليلة التي قضاها عند الطاولة كلمة واحدة. في الصباح الباكر سقطت رأسه على الطاولة، واستغرق في النوم.

مازال الظلام جاثمًا وهما يخرجان من الحانة. تتحول بقايا رطوبة الهواء إلى صقيع تراكم فوق كسرات الأحجار التي ينزلان فوقها متجهين صوب الميناء. «نامي» يخطو بخفة، وكأنه كرة مرتدة. بينما «بافل» يسير متمهلًا وكأن الكحول الكائن في دمه ينساب منه في هوادة، ولا يجب أن يسقطه فوق الأرض. يسير بارتباك شديد فوق منصة خشبية، و«نامي» خلفه يسعى إلى أن يسند «بافل» كي لا يسقط. عندما أصبحا في منتصف المنصة يحط «بافل» جسده فوق الألواح الخشبية دون أن ينبس بكلمة، ثم يسحب غطاء معطف الصيادين البالي فوق رأسه، ويغلق عينيه. «نامي» يرتعد من البرد الذي سرى في كل جسده.

يقول بحذر:

استيقظ يا عمي!

لكن «بافل» لا يتحرك. يتذكر «نامي» جدته وهي توقظ جده عندما عاد الي البيت في مثلِ حالتهِ،

وسقط أمام عتبة الباب. فخاطبته بنبرة عسكرية، وبلهجة الآمر الحادة، وقالت وهي تحمله وتدفعه إلى داخل البيت لينام فوق سريره مخاطبة «نامي» الذي غشيه النوم:

يجب إصدار الأوامر للسكارى.

ثم واصلت دفع جده أمامها بخطوات عنيفة.

يصيح «نامي» بينما «بافل» يغط في نومه:

انهض!

يشرع «بافل» في فرك أطرافه الأربع، ثم ينهض واقفًا ببطء وحذر. يعتدل، لكنه لا يتحرك من مكانه.

يصيح فيه «نامي»:

لنذهب إلى السفينة أيها الغبي!

يتحرك «بافل»، وينظر بعينين مواربتين وسط ضوء الصباح الباكر، لكن يبدو أنه يسير في الاتجاه

الصحيح، يمشي مسافة مترين فوق المنصة الخشبية العريضة دون أن تذل قدماه. «نامي» يسير خلفه، ويضحك ضحكة مرهقة. بدا «بافل» متماسكًا للحظات وهو يصعد القارب، لكنه يترنح بقوة، ويتعثر، ثم يسقط في حيّز ماءٍ باردٍ ضيّقٍ بين القارب والمنصة الخشبية. يجلس «نامي» فوق المنصة، يتطلع أمامه للحظات ليرى القبطان «بافل» وهو يحاول الصعود إلى القارب. حركات «بافل» صارت محسوبة، وتلقائية إلى حد بعيد. لا سِبَاب ولا هرتلة. اختفت كل مظاهر الثمالة السابقة. يقفز «نامي» في المركب، وبعد لحظات من الإجهاد والاجتهاد يتمكنان سويّا من صعود القارب.

يقول «بافل»:

أشكرك! فكّ القارب!

يدير «بافل» المحرك، وهو لا يكاد ينظر أمامه. ثم يقود القارب نحو حاملة النفط ذات اللون الأحمر في أسود، الراسية في شرق الخليج. كلاهما صامت، بينما

يعلو هدير المحرك، ولطمات الموج. «بافل» يخنّ، ويتساقط المخاط من أنفه وقطرات الماء من شعره. بينما «نامي» منكب على نفسه، وينظر إلى مدينة «بوروس» التي تبتعد تدريجيّا، ويبدو لونها ورديا وسط تباشير الصباح وهي تصحو من عتمة الليل. يخيّم على المدينة ظل طبق الأقمار الصناعية المخصص للتواصل مع سكان الكواكب الأخرى. أسنان «نامي» تصطك من البرد. واللون الوردي يكسو كل شيء.

****

يميل "نامي" فوق جسد "ظاظا" الأبيض، يشعر بدمه يتدفق سريعًا في جسده. "ظاظا" تبتسم وتمسك رأسه بين كفيها. "نامي" يلتقط بفمه حلمات ثدييها، و"ظاظا" تتأوه، ويشحب وجهها. تتسارع ضربات قلبه بدرجة لا تحتمل. يحرك رأسه فوق جسدها ويسقط إلى أسفل، إلى أن يصل ما بين فخديها. فتصطدم ذقنه بعائق صلب. يرى أن أمامه حائطا إسمنتيا يشبه سد النهر. "ظاظا" تئن، وتستحثه بألا يتوقف. شحب

لونها، وظهر الزبد حول فمها. يتشبث "نامي" بالسد بكل حماس إلى أن يعثر على فتحة الباب، فيدير المفتاح فينفرج أمامه. يفتحه فيرى ممرًا طويلًا، يضيئه شعاع خفيف في نهايته. يهرول "نامي" فيرى نهاية الممر تتباعد أكثر فأكثر. يفكر في أن يضع إبهامه في فمه، كما كان يفعل وهو طفل. وفجأة يجد نفسه واقفًا في نهاية الممر، يتطلع منه إلى هضبة "فينوس" التي تقف شامخة أمام عينيه. ينتبه إلى أن قلبه ينتفض بقوة. الشعيرات تقف ناتئة إلى أعلى بكل سعادة و"نامي" سعيد. فجأة يشعر بحركة وسط الشعيرات. ينظر فيرى عناكب سوداء صغيرة تتحرك وسط الشعيرات، تقف فوق بعضها، وتتدفق في جماعات وكأنها ترتطم ببئر بترول، فينبجس منه النفط بلا توقف. يصرخ "نامي" هلعًا، ثم يقفز بعيدًا. تتدفق العناكب، و"نامي" يهرول عائدًا في الممر المظلم، يصرخ وهو يشعر بالعناكب تحت قميصه.

عندما يستيقظ يرى نفسه ينشج بصوت مرتفع. يشم رائحة النفط في الهواء، ويسمع هدير المحرك الرتيب.

يرقد فوق الأرضية في حجرة المعدات.يتحرك مثل عوامة فوق سطح الماء، تنتابه رغبة في أن يقفز. رأسه يكاد ينفجر، والحمى تلف كل جسده.

****

تراوده أحلام غريبة يفزع منها أثناء النوم. يرتعد، ويتصبب وجهه عرقًا. سطح الأرضية المعدني يسخن، ويلسعه. أحيانًا تراوده صورة جدته وهي فوق القارب، لكنه لم يعد متأكدًا، إن كان هذا قد حدث بالأمس أم في العام الماضي. يرى أنفه، فيتخيله ضخمًا بصورة غريبة. تتراجع سرعة السفينة. يسمع "نامي" أحدهم يصرخ، إنها أوامر طاقم السفينة في الغالبِ. نعيق أجش من رجل مرهق. صرير سلاسل الرسوّ، بعدها يسمع الخُطّاف وهو يحتك بالقاع. يتكئ "نامي" على مرفقيه فيرى أمامه قدرًا معدنيّا به ماء. فيسكبه في جوفه دفعة واحدة. مصباح يومض في سقف الغرفة. غرفة المعدات ذات طابقين، وفناء في المنتصف. ينتشر فيها صوت المحركات مكتومًا. المعدات

والحوائط وحتى الأنابيب مغطاة بدهن لونه أخضر متشقق هنا وهناك.

يجلس “نامي” فيرى أمامه القبطان “بافل”. يبدو عليه الإرهاق والسقم. شعره كساه الدهن.

يهمهم حتى كاد لا يفهمه:

لقد وصلنا، انصرف!

يومئ «نامي». يشمّ رائحة العرقِ وهي تفوحُ من قميصه. يهم واقفًا، فيفقد توازنه ويترنح.

يسأله القبطان، وهو يقلب فيه طرفه :

أتعرف إلى أين أنت ذاهب؟

يهز «نامي» رأسه، ويشعر بالدوار من جديد. يلاحظ بضع إعلانات خلف القبطان «بافل» عليها صور لفتيات عاريات، ومؤخرات بارزة.

ابحث عن البازار الكبير! اسأل عنه. خلفه توجد حديقة، وفي الحديقة سوق للعمل.

يهز «نامي» رأسه وهو لا يعرف المقصود بسوق العمل. لكنه يعرف أنه سيذهب إلى هناك على أي حال، مثل فراشة ليلية يجذبها ضوء وهاج في عتمة الليل. يسحب الهواء إلى صدره وهو يتمايل فوق السفينة، فيشعر براحة. ليس هواء عليلًا، بل هي رائحة النفط المحروق، والفضلات، ورائحة السمك. لكنه يتحرك على الأقل. يرى العاصمة أمامه. إنها في الجانب المقابل للبحيرة. يدور رأسه ويكاد يفقد وعيه.

## يَرَقَة

لو أراد "نامي" أن يصف المدينة لما عرف من أين يبدأ. البيوت سامقة. ينكمش "نامي" بعفوية وعيناه تبحثان وسطها عن السماء. الهواء يضج بأبواق السيارات، وعوادمها وصخبها. امرأة تنبه طفلها بصوت صارخ وهو يزعق. يشعر برائحة الغائط، والعطور الحادة، ودهون القلي. يتطاير التراب والأوراق الملوثة بالشحوم في الهواء. هيئة الناس في المدينة مختلفة: أعينهم تبرق وتلمع، ويتحركون بسرعة. حتى كلاب الشوارع في عجلة من أمرها. الحوائط مجلدة بإعلانات ملونة على طبقات كثيفة متحررة من مكانها، وتراكم عليها التراب.

شخص ما يزعق عليه ببوق سيارته من الخلف، ويقفز "نامي" من الفزع. فتاة ترتدي نظارة شمسية تقودُ سيّارة سباقٍ ناصعة لامعةٌ لشدّةِ نظافتها. شعرها وأسنانها تتلألأ، ترتدي أساورَ في يدها وتشير بها نحوه. يقف "نامي" مكانه ينظر إليها. الفتاة تصيح

وتلوح بيدها كي يتنحّى عن الطريق. على قميصها المطرز بأحجار فضية صورة حصان البحر، وفي أسفله ثديانِ كبيران مستديران ناهدانِ. انتصب عضو "نامي" حتّى آلَمهُ، ويدفعه أحدهم، فتنطلق السيارة وهي تطلق نفيرها. يظل "نامي" يتبعها بناظريه وهو يدلك صدره. فتاة شقراء بشعر أسود في منتصف العمر تهلل ساخرة. تجمعت الدهون حول خصرها، ونبت شارب فوق شفتها العلوية.

يسألها:

كم الساعة يا «طنط»؟

لا يعرف في أي فترات اليوم هو الآن. الشمس قريبة من الأرض، والسماء بلا سحب، لكن رياح تهب، وتحمل معها غلاف علبة بسكويت من تحت قدمه.

ترمقه من خلف نظارتها:

«طنط»؟!

ثم تعلو ضحكتها فتتراقص الدهون حول خصرها، وتطقطق بضع أسنان ذهبية في فمها. يحدجها نامي بعينيهِ، وينتظر أن تتوقف عن الضحك. تضع المرأة حقيبة المشتريات فوق الأرض، وتخلع نظارتها، ثم تمسح الدموع من عينيها.

تجيبه:

الثامنة والنصف.

ثم تحمل الحقيبة، وتهم بالانصراف:

منتصف التاسعة أيها الصبي!

يجيب «نامي»:

شكرًا!

تدير المرأة رأسها وهي تبتسم:

أتريد كعكة؟

نعم، من فضلكِ!

نعم، من فضلكِ؟ وتحسبُ نفسكَ رجُلاً؟ تحدث كالرجال!

لكني أتضوّرُ جوعًا بالفعلِ!

تعال معي!

تعبر المرأة الشارع، الرياح تهب باردة، و«نامي» يرتعد رغم أنه يرتدي معطف جده. تدخل المرأة من باب زجاجي، تعلوه لافتة حمراء مضيئة. اختفت أغلب حروفها. و«نامي» عاجز عن أن يتنبأ بها: تش ---- ك--- ار----م. ك..ك..ه.

تشتري المرأة عند طاولة بيضاء بالية كعكتين ل «نامي»، ولنفسها قهوة دون حليب. تتابعه في صمت وهو يدس الكعكتين في فمه، تدخن وتهز رأسها. أظافرها حمراء مثل دم الأطفال. يسعل الشاب الواقف خلف الطاولة ويرتدي قبعة بيضاء متسخة، ثم يدفع درج الخزينة ببطنه. يشعر بطعم الزيت المحترق في

الكعكتين. تلفظهما معدة «نامي» فيتقيؤهما بعد بضع ساعات.

يحمل عن المرأة حقيبة المشتريات حتى الطابق الثالث. قدماه متعبتان. تشير المرأة بيأس نحو حفرة المصعد وتقول إنه لا يعمل، ولم يعمل أبدًا من قبل. حتى كابينة المصعد غير موجودة في الحفرة أصلًا. تتنفس بصعوبة، ثم تعبث في حقيبتها البيضاء الكبيرة بحثًا عن المفتاح.

ادخل!

يوجد خلف الباب في الدهليز ضوء أصفر. يشتم «نامي» رائحة كرات النفتالين، فيصيبهُ دوارٌ جرّاءَ هذه الرائحة التي يعرفها. يعود بذاكرته إلى خزانة جدته التي طالما اندسّ فيها كلما أراد أن يختبئ من جده السّكير. يستنشق رائحة النفتالين، ويفرك رأسه التي سكنها القمل. هذه المرأة على الأقل لديها حليب دافئ، وسرير طريّ فوقه غطاء ناعم. تخلع معطف الوَبرِ

الوردِيَّ ، وتنتَعِل خفًّا بلاستيكيًا. يشتم «نامي» رائحة معطفها الذي يعبقُ مسكًا بعد أن تضعه فوق الشماعة.

تناديه المرأة مهللة بسعادة:

هيا ادخل! لماذا تسمرت هكذا عند الباب؟

يشعر «نامي» بأنه سيفقد وعيه. داهمه شعور بالوهن جعله يتكئ برأسه فوق الباب.

يهمهم بصوت غير واضح:

يجب أن أنصرف. كيف أصل إلى سوق العمل؟

تعال استرح قليلًا.

تجيبه المرأة، ثم تميل برأسها فيظهر الدهن المتراكم أسفل ذقنها. تمد يدها نحوه، وتتقدم منه. فيهز «نامي» رأسه بالرفض، ويدفعها بعيدًا عنه. يشعر أن رائحة المرأة ستصيبه بالاختناق. يشعر بضيق في

صدره، فيرفع حقيبته من فوق الأرض، ويهرول فوق السلم.

تهز المرأة رأسها:

-يا لكَ من غبي! انصرف!

يسمع لطمة الباب قبل أن يبلغ آخر درجات السلم.

غدَا شريدًا. يمشي فوق الرصيف ولا يعرف إلى أين سيذهب. يسير بخفة بعد أن شعر بتحسن. أحيانًا يقفز كلما رأى حفرة فوق الرصيف. وفجأة ينضم إليه في مشيته كلب أصفر قذر، ينعطف يمينًا عند أول تقاطع.

الهواء بارد، وحاد مثل نصل موسى. هبات الرياح تحمل رائحة النفط. يتخبط «نامي» بين الناس، ويتطلع إلى واجهات المتاجر. يتوقف أحيانًا، وينصت إلى ضجيج المدينة. يرى أنه يعود إلى نفس المكان الذي كان فيه منذ قليل. يفزع من صورته التي تنعكس على زجاج واجهة متجرٍ من متاجر الأحذية. شفتاه منتفختان، تغطيهما قشور جلد جافة. يرى أول كشك

في سوق العمل بعد أن بدأ الألم يتسرب إلى قدميه، ويسكن تحت أظافره. يرى أقفاص البطاطس، وصناديق الأسماك، والتفاح الأحمر، وزجاجات الفواكه المطهوّة، والخضروات المحفوظة، وعلب بلاستيكية بها أقراص العسل. يشم رائحة لحم الضأن القادمة من الشوايات، فيزدرد ريقه.

موسيقى رخيمة قادمة من أجهزة الراديو، ترافقها أصوات عالية.

أهل السوق يقفون في الأكشاك، وجوههم عريضة، تجمعت حول أعينهم تجاعيدُ غائرة، تجاعيد تشبه شقوق بادية قاحلة، يشبهون مواطني «بوروس». يشتري «نامي» كوب شاي، وشطيرة بلحم الضأن. تنساب عصارة دهنية ساخنة فوق رقبته، وتدفع الدمع إلى مقلتيه. يبتسم وكأنه قد عثر على خَلاصِه.

يسأل بائعة شرائح اللحم التي ترتدي لباسًا أخضرًا:

أين سوق العمل؟

تومئ المرأة برأسها، لكن صوتها لا يصل إليه. صوت الراديو مرتفعٌ جدًا. فيضطر «نامي» إلى أن يكرر السؤال مرتين. تهز المرأة رأسها في الاتجاه الذي تتدفق منه حشود البشر. يتوجه «نامي» إلى هناك. يمسح يديه في المعطف، ثم يأخذ نفسًا عميقًا. الهواء بارد، ويلسعه فيأنفه. يجد نفسه من جديد في نهاية السوق بعد حوالي خمسين مترًا من التنقُّلِ وسط الأكشاك ورواد السوق. نهاية شارع السوق أنبأت عنها حاويات مفتوحة امتلأت بالذباب والخضروات الفاسدة. خلف الشارع تبدأ الحديقة. حديقة عامرة، ممراتها نظيفة، تجمعت أوراق الأشجار فيها في أكوام. تتصدر مدخلها نافورة، تعمل على ما يبدو، رغم أنها متوقفة الآن نظرًا لانخفاض درجة الحرارة. يزينها تمثال لحورية جميلة تمسك بإحدى يديها جرّة ماء. ينسكب منها الماء أثناء الصيف في فسقية صغيرة ضحلة، يلعب فيها الأطفال كلما اشتدت الحرارة. لكنها الآن فارغة، وسكن قاعها كيس بلاستيكي ممزق. ترتدي الحورية زيّا تاريخيّا فضفاضًا، يُظِهر تدييها.

يتفحص «نامي» الحورية من كل جانب. ثم يرفع حقيبته بعد أن انتبه إلى تجمع السحب.

يشكل حائط نما عليه اللبلاب حدّا طبيعيّا للحديقة. يرى «نامي» فتحة في الحائط عليها سِلك. يقترب منها فيرى حظيرة مسيّجةً خاوية. وعلى الأرض الإسمنتية علبة كوكاكولا وعصا طويلة انتشرت عليها آثار أسنان. وجذع شجرة جاف يبدأ من الأرض وينتهي في السقف. يرفع «نامي» رأسه فيرى حيوانًا ذا شعرٍ يقف فوق الشجرة. ينظر إليه دون اهتمام، ممسكًا بقضيبه.

يشعر «نامي» بوجود أحدهم بجواره. إنه رجل ذو شعر فضي أجعد، يرتدي صدرية صيادين لونها كاكي.

يسأله:

ما هذا؟

يرد الرجل قبل أن يسحب نفسًا من سيجارته:

قردا!

أعرف، لكن أي نوع من القرود؟

قردا! مجرد قرد واسمه ميمون!

ميمون!

يصيح «نامي»، لكن القرد لا يعيره أي اهتمام. يظلّ رابضًا فوق الغصن، ممسكًا بقضيبه. ثم يستدير ليُرِي «نامي» مؤخرته الحمراء.

يسأل «نامي» من جديد:

لماذا هو هنا؟

يهز الرجل يديه:

من الطبيعي أن يكون هنا. هذا هو منتزه المدينة. الأطفال يأتون إلى هنا. يبدؤون الرحلة بزيارة الدب الحجري، ثم النافورة، ثم ميمون، وفي النهاية يأكلون الآيس-كريم. يحدث هذا كل أحد.

لماذا يمسك قضيبه طوال الوقت؟

يتطلع الرجل إلى السماء، ثم يهز يديه بضجر، ويقول:

أيها الصبي! بمَ تنتظر أن أجيبك؟ لأنه قادر على هذا.

يضحك «نامي»، ثم ينادي في هدوء:

يا ميمون!

ميمون يظل مستديرًا، يواجه «نامي» بمؤخرته. يشعر «نامي» برائحة القرد تتسلل إلى أنفه.

****

يتكون السوق من ثلاثة صفوف، وأحيانًا أربعة. رجال يرتدون جميع ألوان الحزن، تفوح منهم جميعًا رائحة الإنسانية، والملابس المتسخة. لا يتحدثون إلا قليلًا، يطأطئون رؤوسهم نحو الأرض. يقبضون على أكفهم المكدودة التي تراكمت عليها قذارة أبدية. يعتدل الرجال ويسحبون بطونهم كلما توقفت سيارة على الطريق، أو سمعوا صوت فرامل عربة تُقِلّ أحد

الباحثين عن عُمال. يُخرج يده من نافذة السيارة، ويشير بإصبعه إلى أحدهم. فيهرول نحوه ثلاثة أو أربعة رجال من طابور العمال، ويتوجهون نحو السيارة، ويبدؤون التفاوض مع صاحب السيارة بأيديهم. وبعد تزاحم قصير يصعد رجل أو رجلان إلى السيارة، وسرعان ما يحتل مكانهما في الصف الأول شخص بديل. بالقرب منهم يقف جيش من النساء الباحثات عن عمل. عاملات نظافة، أو رعاية الحدائق، أو جليسة أطفال. يتهامسنَ، وأحيانًا يضحكنَ، شعر «نامي» وكأنه يستلقي في الحديقة وقت الربيع أسفل شجرة الكرز، يستمع إلى طنين النحل في قمة الشجرة.

ينضم «نامي» إلى نهاية الصف الثالث. لا يصيبه الدور طوال اليوم. لم ينظر نحوه أي صاحب عمل محتمل. لم يشر إليه أحدهم بإصبعه، ولم يسأله كم جوالًا من الاسمنت يستطيع حمله. بدأ الجمع يتفرق في كل الأنحاء بمجرد أن شرعتِ الشمس في المغيب. جسد «نامي» يرتجف رغم حركته الدائمة. بالتأكيد كانت المرأة التي ساعدها في حمل المشتريات ستقدم له

كأسًا من الشاي، وربما سريرًا نظيفًا ينام عليه. لكن ذكرى رائحة جسدها النفاذة، وأزيز خفها البلاستيكي جعل جسده ينتفض.

قضى ليلته في المنتزه أمام قفص ميمون. ينام قليلًا، وعلى نحو متقطع، ينتفض من البرد، لكنه يستيقظ في الصباح منتعشًا، رغم أنه يشعر بأنفه وقد تجمد من البرد. يشتري «نامي» شايًا أسودَ مُحَلّى بالسكر مع شطيرة كرنب بمجرد أن يفتح أهل السوق أكشاكهم. اليوم يبدو أفضل من قبله. الشمس تسعى إلى أن تظهر من خلف السحب، لكن الرياح تهب باردة. يذهب «نامي» من جديد ليقف في صفوف العمال، فقد جاء اليوم مبكرًا، لذلك وقف في الصف الثاني. يعرف بعض الوجوه منذُ أمسِ. يقف معهم وهو يومئ لهم. ثم يتجاهل كل منهم الآخر حتى المساء، إلا عندما يراقب أحدهم مكان الأخر كلما ذهب لقضاء حاجته.

لاحظ «نامي» أن الزبائن الباحثين عن عمال لا يطلبون يوميًا سوى خُمْس الراغبين في العمل تقريبًا. إذن هو في حاجة إلى خمسة أيام. لكن هذا الوقت يتضاعف.

والنقود تنفذ منه، وتشتد برودة الجو ليله بعد أخرى. يشعر برائحته الكريهة. وبحكة في شعر رأسه.

ثم يأتي رجل في سيارة نقل صغيرة، يشير إلى «نامي» ورجلين آخرين. يضعهما في صندوق السيارة دون كلام، ثم يحملهم إلى مخزن المرفأ. هناك يفرغون البضاعة من السفن. عمل شاق. تهشم كاحل أحد الرجال الذين انضموا إلى العمل مع «نامي» وذلك خلال أول وردية. «نامي» ليس لديه قفاز، لذلك ظهرت بعد بضع ساعات بثور دامية على يديه. ظهره يؤلمه من حمل صناديق الجزر والبصل ونقلها. لا يتخيل أن هذه المدينة يسكنها كل هؤلاء البشر القادرون على استهلاك هذه الكمية الضخمة من البصل. يعطونه وقت راحة لمدة خمسة عشر دقيقة لتناول الغداء. باقي الرجال - شأنهم شأن «نامي»- يوفرون أموالهم، ويشعلون السجائر فوق رصيف الميناء الاسمنتي بدلًا من تناول الغداء. يجلسون فوق صناديق خشبية، يدخنون سجائر رخيصة، وينظرون في صمت إلى البحيرة. ظهر الكبريت الأحمر الجاف

في أحواض كانت يومًا جزءًا من البحيرة. منتج آخر يصلح للتعدين. مادة صفراء لا نهاية لها. من هذه المادة الصفراء التي تموج فوقها أجساد ترتدي خوذات حماية يجتزّون كتلا صفراء ضخمة. ينقلون هذا الكبريت بعد ذلك فوق سفن نقل ليقدموه لتجار نهمين في أفريقيا وأستراليا.

في الخلف شعلات لهب تتصاعد من أربعة أبراج سوداء. اشتد جسد «نامي» بعد بضعة أيام من العذاب في العمل. صار جِلده صلبًا، ألم ظهره لا يتوقف، لكنه لم يعد ينتبه إليه. تلقى أول راتب له بعد أسبوع، نصف المبلغ الذي وعدوه به. فقد اقتصوا النصف الثاني مقابل السكن. يجب أن ينفق الأموال بكل حذر. فما تبقى له بالكاد يكفي للطعام. لكنه يحاول أن يدّخر لشراء سروال جديد ومعطف، كي لا يبدو مثل القرويين. كلما شعر بالجوع شرب الكثير من الماء كي يكبح هذا الشعور. يراوده شعور بأن عليه أن يظهر مرة على الأقل كل أسبوع وسط أناس آخرين لا تفوح منهم رائحة السمك، ولا تتراكم القذارة خلف أظافرهم.

تتراءى له بين الحين والآخر صورة غامضة في منطقة بين الوعي واللاوعي. صورة لا يعرف صاحبتها. لكن يبدو من شعرها الطويل وتدييها أنها امرأة. ينتابه شعور دفين أنه يحبها، لكن نظرًا لغموض الخطوة التي عليه أن يقوم بها حيال هذا الأمر، يرجئ الأمر برمته.

المياه في المبيت مقطوعة ولا تأتي إلا ساعة واحدة في الصباح، في أحسن الأحوالِ. وتأتي باردة.الشتاء بدون تدفئة. أرضية المبيت مصنوعة من خشب كاد يتحلل. ورائحة حامضية تفوح من المراحيض وتتخلل كل شيء، تتسرّبُ إلى الحيطان، والملابس والشعر والوسائد.

أسطح النوافذ ليست من الزجاج، بل من ألواح خشبية، تتسلل الرياح من ثغراتها. الأسِرّة قاسية، لكنها ليست بقسوة الحشائش الجافة في المنتزه الذي يتصدره قفص ميمون. الليالي قصيرة، و«نامي» يستيقظ، ويسمع خطوات شركائه في المسكن تتباعد، ينصرفون ويسبقونه إلى ورديتهم.

يشارك «نامي» الغرفة إحدى عشر رجلًا. يعودون إليها متعبين، يلقون أجسادهم فوق الأسرّة كل مساء، فيغلبهم النعاس. لقد اعتادوا على بق الفراش. لا يجهدون أنفسهم بمحاربته. ذات مرة رفع «نامي» لوح الخشب فوجد في خشب سريره الآلاف منها. ليس لدى الرجال طاقة للعراك ولا حتى الاستمناء. «نامي» أحيانًا يتذكر «ظاظا». لكن كل ذكرى لها تلوثها صورة مؤخرة ذلك الروسي وهي تتحرك بانتظام. فيطرد الذكرى من رأسه على الفور. نمت عضلاته، نحف جسده. لا يتحدث مع رفقائه تقريبًا. أحيانًا يتبادل مع أحدهم التحية وهم في الحمّام. يستيقظ ذات مرة في الصباح، فيصاب بالدهشة بمجرد أن يفتح عينيه. تراوده فكرة ما. يشعر بعضلاته تتيبس، وضوء كهربائي يتسرب إلى رأسه من عينيه المغلقتين. ضوء قادم من مصباح في السقف. يشعر وكأن أصابع يده تطول وتقصر مع كل نبضة في قلبه، وقلبه ينتفض. لم يكن مضطر إلى أن يضع يده أسفل الوسادة ليعرف أن جوربه البنفسجي وكل مدخراته به قد اختفى. يتشبث بالغطاء، وعيناه مازالتا مغلقتين. لا ينظر حوله، فلن

يخبره أحد بشيء على أي حال. غبي! لقد اختفت الأموال التي ادخرها لشراء معطف جديد. من اليوم سيضع نقوده في زيه الرياضي وسيصلها به بدبوس ذي قفل. يعض على أسنانه، ويبقى في المبيت حتى فصل الربيع.

****

يعمل «نامي» الآن في موقع إنتاج الكبريت. تظل عيناه ملتصقتين وهو ذاهب في الصباح الباكر إلى منطقة مصنع الكبريت. عليه أن يذهب إلى هناك سيرًا على الأقدام، فلا توجد أتوبيسات كي تُقِلّه إلى هناك. شاحنة المصنع لا تحمل سوى العمال المؤهلين الذين يعملون طويلًا في المصنع ويعانون من تورّمٍ رئوي. و«نامي» مازال عامل أسفلت صغير غير مؤهل، لذلك يذهب إلى هناك مشيا على الأقدام. يسير ويداه غارقتان في جيبي معطف تزلج أحمر بالٍ اشتراه من السوق. معطف مستعمل لكنه يدفئه. يمشي مع مجموعة أخرى من الرجال نادرًا ما يتحدثون مع بعضهم. كونت الرطوبة العالقة في الهواء قشرة ثلجية

في ثنايا الطريق، فتطقطق تحت أحذيتهم العسكرية. أحذية ذات نعول صلبة، صنعت من مطاط صلد. رغم ذلك يشعرون فيها بحرارة الرصيف، تظل تحرقهم حتى آخر الوردية. يجب على «نامي» أن يظل منتبهًا إلى حذائه، لأنّهُ إذا خرّبه فلن يحصل على آخر جديد.

يسير طوال اليوم خلف العربة التي يتساقط منها إسفلت ساخن. يُذكّره بحبات العنب الأسود المطهية التي كانت جدته تطهوها وتصبها فوق الكعكة. يشتم رائحة الإسفلت السائل المالحة التي تتغلغل إلى داخله. يوزع الإسفلت بعصا خشبية.

يعود إلى البيت بعد هبوط الظلام، ومعطفه ملوث بذرات تراب كبريت أصفر. يشعر بحرقة في قدميه ورئتيه. وبالكاد يسقط فوق سريره، فلا يضيع الوقت في الاغتسال. يوم الأحد سيكون لديه متسع من الوقت لعمل هذا. عندما تأتي المياه يقوم بإزالة قذارة الأسبوع عن جسده بحمام ماء شديد البرودة، فتتحسن رائحته لبعض الوقت. يستعير مقصًا يقلم به أظافر قدميه ويديه، أما شعره فقد نما وتجاوز أذنيه.

يتوجه بعدها إلى المدينة. ليس هناك من يسأله أو يستشيره. إنه حتى لا يعرف كيف يسأل. لا يعرف اسم أمه ولا حتى شكلها. لا يعرف إن كانت مازالت على قيد الحياة.. إنه يبحث عن امرأة وجودها يشبه تمامًا وجود جنيّة البحيرة.

يتجول في أماكن كثيرة. في بوفيه المحطة، وبين الأكشاك الموجودة في السوق. والمقاهي، والكافتيريات الفخمة (يلقي نظره من عند الباب، ومن خلف الستائر الثقيلة ذات الأهداب الذهبية)، يتفحص وجوه النساء. يبحث عن أي شيء لافت للنظر. غالبًا لا يجد سوى لامبالاة، وكحل ذائب في العيون. السيدات تتجاهله، أو تلوحن بأيديهن نحوه وكأنهن يطردن ذبابة مزعجة. «نامي» يفضل الذهاب إلى الميناء. أحيانًا يلتقي هناك أناسا من منطقته، ملاحين فوق ناقلات النفط، وصيادين كست وجوههم تجاعيد غائرة رطبة. لا يعرف كيف يتحدث معهم. فلا يكون أمامه سوى الجلوس عند الطاولة المجاورة، يشرب الشاي الروسي من قنينة طويلة وهو يستمع إلى أحاديثهم.

يتحدث الرجال عن الشّبَاك الممزقة، والأشجار الجافة، وعن زوجاتهم متقلبات المزاج وكم جار لهم مات بورم سرطاني. دائمًا ما يأتي الحديث عن بيوت الدعارة التي زاروها أو ينوون زيارتها.

بعد أول جلسة سُكْر يأخذون «نامي» معهم. بيت الدعارة «سيمفونيا» مكان موحش، على عكس ما يوحي به اسمها. خلف الباب مباشرة يوجد ما يشبه غرفة الاستقبال، ومكتب استقبال يقف فيه رجل ضخم البنية، يرتدي زيّا رياضيّا، يوزع مفاتيح الغرف. ويعمل في نفس الوقت نادلا في البار. فتيات متعبات يجلسن فوق أرائك قذرة ورثّةٍ. فتيات لا تشبهن تلك اللواتي تظهرن في كتالوج الملابس الداخلية. تفجرت عروقهن تحت جلد أفخاذهن، وانتشرت فوقها الكدمات، وتدلت بطونهن اللحيمة تحت بلوزات قصيرة. نبتت شوارب بعضهن أسفل أنوفهن أظافرهن طويلة، وملونة، تنتأ من وسطها السجائر. يتكئ «نامي» على طاولة مكتب الاستقبال بلا اكتراث وهو يتفحص الفتيات. بعضهن نساء ناضجات، قد تكون

إحداهن أمًّا له. تقع عيناه على فتاة ترتدي ملابس بيضاء داكنة. يبدو أنها أصغر واحدة هنا. فهي لا تبدو أكبر من «نامي» كثيرًا. ترمقه الفتاة بنظرة إرهاقٍ وتوسّل لا إغواءَ فيها . يميل «نامي» إلى الرجل الواقف خلف الطاولة بينما هو يرفع صوت الموسيقى عاليًا، فتدوي آلات موسيقى شرقية راقصة، مع صوت مغنية تنعق. يسأله «نامي» عن الأسعار وسط الضجيج ولا يكرر السؤال. الرجال يسكبون في جوفهم كؤوس الخمر الثقيل، كأسًا وراء الآخر. وبعد أقل من نصف ساعة تدور رؤوسهم من أثر الخمر. يشرعون في مناداة بائعات الهوى، فيلبون النداء على مضض، ويجلسن فوق أرجلهم. تحتضن الفتاة ذات الملابس البيضاء الداكنة مؤخرة عنق سمينة لرجل أصلع، له جسد مصارع سابق. «نامي» لا يحتاج إلى أن يقترب منه كي يشعر برائحة العرق والسجائر.

يطلب «نامي» زجاجة بيبسي كولا، لأول مرة في حياته. سعر الزجاجة هو مقدار ما يجنيه «نامي» طوال اليوم. بينما الفتيات يختفين مع الرجال في

الغرف. في الجزء الخلفي للمكان يظل «نامي» وحده مع زجاجة البيبسي كولا والشفاط. يشرب على مهل، طعمها لذيذ وحلو. يمرر يده على حافة طاولة الاستقبال، ورجل الاستقبال ومدير بيت الدعارة يقرأ صفحة أخبار الرياضة في الجريدة. يهم «نامي» ويسأله عن أسعار استئجار الفتيات. يبتسم الرجل، ويخبره عن قائمة الأسعار الرئيسية. يشكره «نامي» بكل أدب وهو يرى أنها أسعار مرتفعة. يضع القبعة فوق رأسه ثم ينصرف. يعلو صرير فرامل سيارة عند الرصيف، وينزل منها رجل يضع فوق رأسه قبعة، وحقيبة على ظهره، ويهرول منصرفًا. يغادر السائق السيارة ويسرع وراءه. حقيبة الظهر تتأرجح ثقيلة على ظهر الرجل الذي سرعان ما يلحق به السائق، ويطرحه على الأرض ويبدأ في لف رباط الحقيبة حول عنقه. يتصارع الرجلان دون أن ينبس أحدهما بكلمة واحدة. ثم يهم السائق واقفًا، ويركل الرجل المطروحَ أرضًا، ثم يعود إلى السيارة. يدير المحرك وينصرف سريعًا.

ينحني «نامي» فوق الرجل الملقى على الأرض، يساعده على النهوض. جرح دام على وجهه وآثار بكاء.

في المبيت يحلب "نامي" قضيبه على عجل، ثم يتمرغ في الفراش طويلًا قبل أن يغشيه النوم.

****

يُعلّمه زميله "نيكيتيتش" أنه لو رسم شيئًا معينًا بالعصا فوق الإسفلت قبل أن يجف فلن يبق له أي أثر، وسيختفي في الإسفلت بالكامل. ولن يجده إلا من يعرفه. عندما يجد نفسه وحيدًا مع طبقة الإسفلت الطازجة، يرسم "نامي" فوقها صورة ألمه ، ويدَي جدته الكبيرتينِ، وملامح جسد امرأة، ودجاجة في حظيرة نتنة، وثلاثة مثلثات. ثم يبول سريعًا على ما خطه، ويبقى سره محفورًا فوق سطح الإسفلت، على هيئة خطوط ضبابية لا تُقرأ. أمسك به ذات مرة رئيسه في العمل، ولطمه على وجهه، لكنه لم يطلب منه أن يصلح ما أفسده في سطح الإسفلت. وسيحمل الإسفلت المتعرج سره إلى أن يتصدع من حرارة

شمس الصيف، وصقيع الشتاء، أو تفتته شاحنات نقل الكبريت وهي تمر فوقه.

صارت منطقة الكبريت مغطاة كلها بالإسفلت، وحتى طريق الوصول إليها. لم يبق إلا طريق واحد. الطريق الذي يربط المخزن بالبحيرة، وينتهي دون مستوى سطح البحيرة. شعر بحرارة الصيف وهو يسوي سطح الإسفلت بالشوكة. يرتدي "نامي" حذاء قويًا مخصصا للعمل، وسروالًا من القماش الخشن مغطى بالقطران. يلف بلوزة حول رأسه، والعرق يرشح من صدره العاري. يجلس "نيكيتيتش" في الظل، ويسكب فوق رأسِهِ ماء من زجاجة بلاستيكية، ثم يرميها خلفه. "نيكيتيتش" رجل طيب في الخامسة والثلاثين تقريبًا، بدأ شعر رأسه يتساقط، فراح يغطيه بقبعة. يحب أن يتحدث عن نفسه ويقول إنه خريج جامعة الحياة، يقرأ الجرائد ويتفلسف. كثيرًا ما ينتهي إلى نتائج خاطئة نظرًا لتدني مستوى تعليمه. لكن لا يوجد من يجادله.

"نامي" يرفع رأسه نحو السماء. يبهره ضوؤها. يرى سحابة داكنة فوق الصحراء الغربية. تكبر وتقترب.

يشير بذراع شوكة التسوية، ويقول:

ما هذا يا نيكيتيتش؟

يجلس «نيكيتيتش» ويدفع بالقبعة نحو مؤخرة رأسه.

صحيح! ما هذا! اللعنة!

يتكئ «نامي» على الشوكة، إنه مرهق وفي حاجة إلى قسط من النوم. تقترب السحابة على مهل، ويزداد حجمها. يفرك «نيكيتيتش» بطنه، ويقول:

أوليس هذا جرادا؟

يدقق «نامي» في تفاصيل السحابة.

اللعنة! لم أر في حياتي شيئًا كهذا! هل رأيت أنتَ مثلها؟

يضحك «نيكيتيتش» كالأطفال. يهز «نامي» رأسه. إنه لم ير مثله من قبل، رغم أن جدته حكت له عن جراد جاء إلى «بوروس» ذات يوم، وأكل كل ما نبت في حقلهم. وكل ما خبؤوه في خزائنهم. حتى شطائر تلاميذ المدارس التهمها، وكابلات الإذاعة! «نامي» يتعرف على جسد الحشرة، وأجنحتها، وأقدامها السوداء. الجراد يبدأ في النزول إلى الأرض بالآلاف. حط بعضه عليه، فراح ينفضه عن نفسه بهياج. فيسقط معظمه على الإسفلت الذي مازال ساخنًا، يلتصق به، ويظل طويلًا يلفظ أنفاسه وهو يصدر ضجيجًا لا يحتمل.

يصيح«نيكيتيتش»:

أيتها الملاعين! عليك اللعنة جميعًا! لقد دمرتِ الطريق الذي رصفته للتو!

تجفف الحرارة أجساد الجراد، وتحولها إلى جماجم، وستظل بقاياها ناتئة فوق الأرض حتى الشتاء. الطريق يشبه سجادة سمكها خمسة سنتيمترات،

صممها فنان مجنون. لن تعبره أي سيارة. سيمشي فوقها «نامي» أحيانًا، سعيدا بأن أجساد الحشرات الميتة تطقطق تحت نعل حذائه، فتصنع موسيقى غريبة.

****

«نامي» يعمل مع مجموعة عمال الإسفلت التي كُلّفت بتحميل الكبريت. يجمعون بمجارفهم أكوام الكبريت والرمل الأصفر الناعم المتراكم في أرض صفراء مترامية الأطراف على شكل دائرة، ثم يرفعونها فوق كومتين في ركني الحقل تعلوان باستمرار.

«انظرا! أنا على شاطئ البحر!»، يصيح «نيكيتيتش» وهو يستلقي فوق كُثيب الكبريت. «إنه مثل إجازة استجمام عند البحر الأسود! استرح أيُّهَا الطَلِيعة! الرمل في كل مكان! يا «نامي»! تعال أنت أيضًا، وتمدد فوق الرمل! لكن عليك أن تضع قطعة من ورق الجريدة فوق أنفك كي لا يحترق!».

يبتسم «نامي»

سيأتي المدير، وسيقتلنا!

لقد انتهت الوردية! تعال!

يرقد «نامي» بجوار «نيكيتيتش»، ويغلق عينيه وهو يشعر براحة. أشعة الشمس تدفئهما، وحفيف أمواج البحيرة يصل إلى آذانهما. يعبث بيديه في الرمل الكبريتي، ويخرج منه حبة كريستال صفراء. يتطلع من خلالها إلى الشمس، ثم سرعان ما يرميها حتى لا ينعته «نيكيتيتش» بأنه مخنث. ينصرف باقي الرجال، لا يرى من أثرهم سوى ظهورهم التي لفحتها الشمس وغطاها التراب الأصفر. لو تركوهم ينصرفون دونهم فلن يتبقى لهما ماء يغتسلان به. «نامي» مرهق، ويشعر بالكسل. يجلس وهو يراقب ظهور الرجال الراحلين. الشمس تقترب من الأرض، والفضاء خلف الخليج يكتسي اللون الأحمر. تتجسد أمام عينيه هياكل أبراج المنجم، وحيوانات طويلة مندثرة، ووحش له سبعة أسنام طرية. يقف فوق سطح الماء، في الأماكن التي تسحبها جنيّة البحيرة من وقت لآخر

تحت الماء بكل غضب. لكنه اليوم لن يفعل. فسطح البحيرة هادئ، والمساء يتقدم في وداعة.

يشعر بكتلةٍ تخبط قدمه. ينظر حوله، بينما «نيكيتيتش» ينظر أمامه، لكنه يضحك. يقول:

ماذا تفعل أيها المجنون؟

أنا؟ لا شيء.

بعد لحظة يحدث الأمر نفسه، لكن هذه المرة تخبط رقبته، أسفل أذنه. يضحك «نيكيتيتش» عاليًا. قلب «نامي» يدق بعنف، ويعصر قبضته. ثم يهجم على «نيكيتيتش» الذي ينتظره، ويسقطه على الأرض. يتمرغ الرجلان في الرمل الكبريتي، وحبات الكريستال الصفراء تعلق بملابسهما ووجهيهما. يلكز «نيكيتيتش» «نامي»، فيحاول «نامي» أن يمسك به من خصره، يقهقه «نيكيتيتش» كالمجنون، ويشعر بقوة تسري في جسده. يرقد على ظهره فوق كومة الكبريت، ويضحك بملء شدقيه. يجثو «نامي» فوقه، ويضغط بيديه

المعقودتين فوق صدره. يشتم رائحة العرق والسجائر، وحبات عباد الشمس. ينتبه إلى قضيبه ينتصب. يدرك أن «نيكيتيتش» القبيح هو أول إنسان يلمسه بيديه بعد مدير الجمعية. «اللعنة»، يقول ثم يتركه ويذهب ليغتسل. لقد نفذت المياه. الرجال يجففون أجسادهم في مناشف قذرة. بلاط الأرضية مغطى بطبقة صفراء. ظل «نيكيتيتش» يضحك وهو يدخل الحمام، ويربت على كتف «نامي».



تعال أيها الغبي!

يمسك «نامي»، ويضمه إليه. تخشب جسد «نامي»، لكنه لم يتراجع. ظل للحظات في أحضان «نيكيتيتش»، يشعر بطيات بلوزته فوق بطنه. يترقرق الدمع في عينيه، ويضطر إلى أن يضع قبضته فوق شفتيه العليا كي لا تسقط دموعه.

يعلو صوت «كريل» الأصلع قادمًا من وسط البخار:

أريد أن أضاجع أحدهم.

بعدها يسود الصمت.

****

في المرة التالية يذهب "نامي" إلى بيت الدعارة "سيمفونيا" مع "نيكيتيتش" ورجل آخر اسمه "كاكتوس".

"إنها تُعالج! لديها مشاكل"، يقول موظف الاستقبال عندما سأله "نامي" عن تلك الفتاة ذات الفستان الأبيض الداكن. ظل "نامي" يحملق فيه طويلًا بعد أن شعر بالإحباط. جال ببصره عله يجد عوضًا عن تلك الفتاة. لكنه رأى باقي المومسات بلا روح، شاحبات مغبرات. فتاة سمراء ذات وجه آسيوي كبير تجلس فوق ركبتي "نيكيتيتش"، ولها صوت عالٍ حاد. تلتقي نظرات كل منهما فيهز "نيكيتيتش" كتفيه مبتسمًا، ثم يلطم فخد الفتاة السمراء.

يدفع موظف الاستقبال أمام "نامي" لوحًا يقطع فوقه اللحم، ويقول له محاولًا التخفيف عنه:

## كُلْ معي!

يمضغ «نامي» اللحم في صمت. يداه منسدلتان بمحاذاة جسده في قلق، وأصابع كفه متوترة.

يقول موظف الاستقبال له بعد لحظات:

لماذا لا تضاجع «ناتاليا»؟ ستتعلم منها أشياء يقف لها شعر رأسك!

يجيبه «نامي» في تردد، وهو يفكر في كتالوجات الملابس الداخلية الحريمي:

هل هي روسية؟

روسية! ربما.

يضحك «نيكيتيتش»، ويشير برأسه نحو الركن حيث تجلس فتاة شقراء سمينة أسفل لوحة متلألئة. عمرها غير واضح، تضع ساقًا فوق ساق، وتحتضن بكلتا ذراعيها إحدى ركبتيها في ملل. يومئ لها موظف

الاستقبال القواد، فتنهض على مضض، وتمشي نحوه متلكئة. يتدلى من أذنيها قرط ملون على شكل راقصة خيل فوق حصان أبيض. علقت عينا «نامي» على القرط، لا يستطيع أن يزيحهما عنه، يتأرجحان أمام عينيه مثل فراشتين لامعتين فوق سطح الماء. ينتفض «نامي».

تقول «ناتاشا»:



هيا بنا!

يتبعها «نامي» في صمت، ويصعد الدرج خلفها. تتابعه عينا «نيكيتيتش» بفضول. ترتدي «ناتاشا» لباسًا من السّتان الصناعي غير محدد اللون، مهلهل على ظهرها وتنتأ منه ندف خيط. على كتفها شرائط حمالات صدر وردية. ساقاها قويتان وجميلتان. درجات السلم تئن بصريرها. سيحدث الأمر إذن. يقول «نامي» لنفسه باستسلام، سينكح لأول مرة في حياته مومسا روسية لا تعجبه. ملأته هذه الفكرة بالحزن.

الغرفة صغيرة إلى درجة أن «نامي» ظنها مخزنًا. لا يكادُ يفتحُ بابها لأن السرير خلفه مباشرة. المكان الواقع بين السرير والحائط بالكاد يكفي لكي يقف فيه «نامي».

«اتركيه!»، يقول «نامي» وهو يرى «ناتاشا» تخلع قرطها. يتكئ على الحائط ويغلق عينيه. ينصت إلى حفيف فستانها الستان. وعندما يعاود فتح عينيه يرى ناتاشا في قميص نوم وردي. تضع إبهامها خلف شرائط حمالات صدرها، وكأنها تريد للحظات أن تزيل عن كاهلها هذا العبء. عيناها منتفختان، تبدو مثل بائعة السمك التي يراها في نهاية كل ورديّة. لا يوجد فيها ما يثير غرائزه. يحاول «نامي» أن يركز على تلك الأقراط، يجتهد في استدعاء صورة «ظاظا». يغلق عينيه، فيرى فتيات كتالوج الملابس الداخلية. يضغط على عينيه عندما أحس ب «ناتاشا» تفك أزرار بنطاله. يحاول أن يناور بقضيبه، لكن «ناتاشا» تقبض عليه بكل عزم. تبصق في كفها، وتجعل منه غطاء تضعه فوق قضيبه. لون الحوائط خضراء، وفوق السرير

لوحة بها صورة نوّة فوق البحيرة، تعصف بمركب صغير.

راحت يد «ناتاشا» الدافئة تتحرك متمهلة وناعمة. يفتح «نامي» عينيه فيرى «ناتاشا» تنظر بذهن شارد نحو الباب، حيث تهدّم جزء من الحائط فوق إطاره. انتابته رغبة عارمة في أن يطلب منها أن تتوقف عما تفعله به. فهي ليست مضطرة إلى هذا.

نحن هنا!

يصيح بحدة جعلت «ناتاشا» تنتفض. يمسك بذقنها ويسحبه. يلمسها، يمرر يده على بطنها إلى أن يصل إلى سروالها الداخلي، حيث يلمس فوق شعر العانة ندبة عرضية صلبة.

يسألها «نامي»:

هل هذه نتيجة ولادة؟

انتبه إلى أنه في حالة إثارة. «ناتاشا» تومئ دون أن تنظر إليه.

اخلعي ملابسك!

تخلع ناتاشا ملابسها على عجل، وقد تملكها الخوف.

كم عمره؟

من؟

طفلك! كم عمره؟

لماذا تسأل؟

يلمس «نامي» ثدي «ناتاشا» الثقيل، يضغط عليه بجسده، فيغلبها بثقله، فيسقطان فوق السرير.

«ناتاشا» تتأوه وهي تمسك به من مؤخرة رأسه:

آه! ماذا تفعل؟

يمشط «نامي» بأصابعه حلقات شعرها الفاتح النابت فوق عظم العانة وهو يفكر في الحشرات التي غرست في الإسفلت. ترقد «ناتاشا» ورأسها فوق الوسادة تتابعه. تحرك منطقة الحوض ناحيته كي يضغط عليه بكل جسده، ويأخذها في أحضانه. يلتصق بثدييها الكبيرين. بشرة «ناتاشا» بيضاء لبنية، شعيراتها الدموية الخضراء الزرقاء تضيء أسفلها، وحلمتاها كبيرتان ورديتان. يقبض عليها «نامي» بقوة كمن مسه الجنون، ارتخى قضيبه، وراح يعتصر المومس الروسية المستهلكة وكأنه يتدفأ بها. وانفجر في البكاء.

تقول وهي تمسد شعره:

أيها الشاب الصغير! اهدأ! ماذا بكَ؟

تدور على جنبها، فيسكن في أحضانها.

يهتز «نامي» من النشيج. يسكنه شعور دفين. شعور يتدفق الآن إلى الخارج بصورة عفوية ولا يستطيع أحد أن يوقفه. تبلل غطاء السرير الأزرق، وثدي

«ناتاشا» التي تهدئه وتهمهم في هدوء دون أن تتكلم إلى أن يتملكه الإرهاق، ويجف سيل الدمع في عينيه.

تحكي له «ناتاشا» عن طفلها بعد أن يهدأ. طفل في الثامنة. اسمه «فوفا» ويعاني من عيب في النظر. لكنه سمين بصورة لطيفة، وحسن الصوت. يسكن عند أم «ناتاشا» التي ترعاه أفضل رعاية. أفضل من «ناتاشا» نفسها. تبتسم «ناتاشا» وهي تتحدث عن طفلها. يرغب «نامي» في أن يسألها عن أمه، لكنه يلتزم الصمت بعد أن شعر بالإعياء الشديد. حزين على النقود التي أهدرها. ربما كان من الأفضل أن يشتري بها بيبسي كولا. وفي موجة تشنج قصيرة يلتصق ب «ناتاشا»، ويتأوه باكيًا.

ينظر إليه «نيكيتيتش» وهو خارج، ويسأله وهو يشعل سيجارته مُجْهدًا:

كيف كانت المضاجعة؟

لا تستحق! ميتة الحس.

يهز «نيكيتيتش» رأسه باهتمام:

هذا ما توقعته!

يعود «نامي» مرة أخرى، ويقف أمام بيت الدعارة «سيمفوينا». يظل واقفًا لحظات عند مدخله حيث يومض الضوء الأحمر والأزرق باهتياج. ثم يستدير وينصرف عائدًا إلى الميناء. يشرب نصف زجاجة من الخمر الثقيل في حانة كريهة، يملؤها رجال قذرون لا تنبئ وجوههم عن أي ود. يشعر بحركة في أحشائه، وكأن حيوانا جائعا قد استيقظ داخله. يتعثر وهو عائد إلى البيت بزميله «أوبور» النائم. يجأر الوحش داخله ويزأر، يريد أن يريه «نامي» شيئًا جديدًا، شيئًا غير البيوت القذرة، والرجال المتسخينَ. وحش يتطلع إلى أن يجعله يتذوق طعم الدم.

يضرب «نامي» الرجل النائم بقدمه إلى أن يرى الدم يتدفق من أنفه المكسور. الرجل يتأوه وقد ملأه الرعب وانتابه الارتباك. «نامي» يتقيأ، يجاهد في كبح جماح الوحش في داخله.

****

تتراكم الأيام، يومًا فوق يوم بتكاسل وتردد، مثل قملة النبات فوق حبة الخوخ أمام نافذة المبيت. يعبئ «نامي» كرات مليئة بالكبريت، ويضعها فوق سير يحملها عاليًا، ويتساقط منه الكبريت فوق سطح سفن النقل. انتفخت عضلاته وتحجر كفّاه من كثرة العمل.

يذهب إلى المدينة بعد انتهاء العمل سيرًا على الأقدام، تغطيه طبقة مسحوق أصفر. يمشي في شوارعها وهو يحمل في يده خريطة، ويضع علامة على المتاجر التي تفحصها. كثيرًا ما رأى أمه، والتقى مرتين ب"ظاظا". لكنها لم تكن أمه ولم تكن "ظاظا". التقى في جولاته بأناس آخرين أكثر من مرة. يلقي عليهم التحية، لكنه لا ينخرط معهم في الحديث، فذلك مضيعة للوقت. يعرف أنه هنا لوقت محدد. أحيانًا يشعر بألم في معدته. فيذهب إلى السوق لشراء حليب الماعز الذي يشربه على الفور. لكن الآلام لا تتوقف. وما يزال الوحش ينخر أحشاءه.

يشرب الرجال الخمر الثقيل في المبيت كل مساء، ويلعبون الورق أو الطاولة. يتابعهم "نامي" من فوق سريره، أو يستسلم للنوم. فهو منهك غير قادر على الانضمام إليهم.. يندلع بين الحين والآخر شجار في المبيت، ينتهي أحيانًا بالطعنات، لكن الشرطة لا تأتي ولا الإسعاف. وتظل فوق الأرض بقعة دم كبيرة. يدير "نامي" رأسه على الجانب الآخر، ثم يغلق عينيه، فمنظر الدم يخيفه.

يهز "كريل" الأصلع سرير "نامي"، ويقول:

نظف هذا أيها الشاب!

إنه رجل غليظ، يظهر عند كل مشاجرة، ودائمًا ما يدخن سجائر أجنبية. فيشعر «نامي» بنبضات قلبه تتزايد، لكن الإرهاق يحول دون أن يهم من فوق سريره. ويجيبه بهدوء وبنبرة واضحة:

اغرب عن وجهي!

يثور الأصلع مثل عفريت العلبة، ويحرك قبضته في الهواء كالممسوس، لكن «نيكيتيتش» يفزع واقفًا، ويعترض طريقه.

ما دخلك في الأمر يا «نيكيتيتش»؟

يرد «نيكيتيتش»:

دعك منه يا أصلع!

اذهب إلى الجحيم يا "نيكيتيتش"!

يزعق «كريل» الأصلع، ويلطم «نيكيتيتش» في صدره بكلتا يديه. يمسك به «نيكيتيتش» من معصمه، ويصفعه بكفيه بقوة، ويقول وهو يحرره دون اكتراث:

حاول أن تزعجني مرة أخرى وسأنظف هذا الدم بسروالك الداخلي.

يقول له «نامي»: «شكرًا». كم هو مجهد، ولكنه عاجز عن النوم، والرجل الذي تعرض للضرب يتأوه طوال

الليل. يجف الدم فوق الأرضية، ويتحول إلى طبقة من الدهن اللامعة بلونها الأحمر القرمزي. سرعان ما جفت وتقشرت، واختفت في نعال زملاء «نامي» سريعًا.

****

يذهب «نامي» مع «نيكيتيتش» إلى مدينة الملاهي يوم الأحد. يشتري له «نيكيتيتش» حلوى شعر، وفولا سودانيا مغطى بالكراميل. يركب كل منهما سيارة كهربائية ملونة صغيرة، يجلسان فيهما بطريقة خرقاء. يرتطم بقوة وجهاهما اللذانِ كستهما علامات الجدية، وانثنى ظهر كل منهما. انتهى الوقت المحدد، لكن «نامي» يطلب من «نيكيتيتش» أن يدفع لجولة ثانية. يضحك «نيكيتيتش». ما الذي جعله يأخذ «نامي» معه إلى الماخور! جاء المسؤول عن إدارة العربات، لكن بقي كل من الرجلين جالسًا خلف عجلة القيادة الصغيرة. ويدفع «نيكيتيتش» مقابل جولة ثانية.

يشعر «نامي» بوعكة وهما فوق الطوق الدوّار. يكتشف عند التصويب بالبندقية أنه لا يتقن التصويب

على الإطلاق، على عكس «نيكيتيتش» الذي أدى الخدمة العسكرية في سلاح المركبات. «نيكيتيتش» يصيب الهدف وهو يتحرك، حتى عروس البحر الملونة على نحو ساذج. تمكن من إصابتها في قلبها مباشرة تسع مرات من عشر. يقذف كرة القدم رديئة الصنع، فتتطاير من فوقها قشور الدهان. لا يهم. «نامي» لم يمتلك كرة قدم في حياته. وعندما أعطاها له «نيكيتيتش» شعر بفرحة غامرة، ورغبة في أن يحتضن صديقه.

انصرفا من صالة التصويب إلى دولاب الهواء. به حجرات ذات أسقف صفراء، جدرانها الداخلية مزينة بنقوش لأعضاء جنسية، ورسائل قصيرة، وأسماء وأرقام هواتف زوار المكان. الدائرة تدور متباطئة. «نيكيتيتش» و«نامي» يتلاصقان في حيزها الصغير، ويخبو الحديث.

يقول «نيكيتيتش»:

سأكتب اسمينا هنا على الأقل.

ثم يسحب قلمًا من الجيب الأمامي على صدر قميصه الصوف ذي المربعات، ويكتب وسط الكلمات الأخرى بخط كبير، وعلامات الرضا ترتسم على وجهه: (البرنس «نيكيتيتش» واليتيم «نامي». جامعة الحياة). ثم يظل ينظر إلى ما كتبه طويلًا. ويتساءل:

«جامعة الحياة»! أليس تعبيرًا جيدًا؟

خط جميل!

يجيبه «نامي» باهتمام، ثم ينظر في الفراغ. إنهما على ارتفاع كبير. فوق أعلى نقطة تقريبًا فوق دولاب الهواء. «نامي» يرى المدينة كلها، حي الفيلات حيث سكان المدينة القدامى. ناطحات السحاب اللامعة التي تملكها شركات البترول، أبراج المناجم، وسفن البترول فوق سطح البحيرة التي تمتد عبر الأفق. يشعر «نامي» بالدوار. يكتم أنفاسه، بينما نسبة الأكسجين تنخفض في دمه، ونبضه يدق في رأسه على نحو لا يحتمل. يقبض على كرة القدم التي أعطاها له «نيكيتيتش»، وهو يفكر في جامعة الحياة. إنها

شاخصة أمامه بكل تفاصيلها، وكأنها تُقدّم له فوق طبق.

يقول وهو يلتقط أنفاسه:

قلت إننا سنرى مدينة «بوروس»!

يهز «نيكيتيتش» كتفيه، ثم يسحب من جيبه علبة السجائر. الهواء يهب في هذا الارتفاع، وعليه أن يجاهد كي يشتعل لهب الولاعة.

يتوقفان وهما عائدين من مدينة الملاهي عند كشك للمرطبات. يلقي «نيكيتيتش» في جوفه أربعة كؤوس فودكا كبيرة متتالية، ثم يلف يده حول عنق «نامي» وهما عائدان، يحكي له بِلَوْعَة عن فتاته التي ذهب إلى العاصمة من أجلها كي يكسب بيديه هاتين - يهز يده الأخرى أمام عيني «نامي» -، من أجل شراء بيت يجمعها، وعرف أنها تضاجع رئيس ورشة السيارات.

احترس من النساء يا صديقي! النساء فخ يقع فيه كل الرجال الطيبين! وسترى أني على حق!

«نامي» صامت، يلوك بفمه بقايا الفول السوداني التي علقت بين أسنانه.

يهتف «نيكيتيتش» وهو يُملّس على وجه «نامي»:

سترى أن النساء فخ!

يتعثر عدة مرات فيمسك به «نامي». هبط الليل، ولا تظهر مصابيح الشوارع إلا متباعدة.

يصيح «نامي»:

هيا بنا! غدًا لدينا عمل!

يتبعه «نيكيتيتش» دون مناقشة.

****

يسقط الكبريت من الدواليب فوق سير ينقله إلى أحد الأقماع؛ منشور مقلوب يسميه الرجال «المرأة العانس». قاعدة القمع متحركة، يفتح قاعها ويغلق

محدثًا صريرًا، يُمرّر ويحجز حبات الكبريت التي تتراقص.

يقف «نامي» مع «نيكيتيتش» فوق سير النقل، يراقبانه كي لا يسقط كثير من الكبريت من فوق السير المتكسر المثقوب المصنوع من مطاط بركاني. يضعان فوق وجهيهما قناعًا بسيطًا من القماش ليس له أي تأثير في كمية تراب الكبريت الذي يتنفسانه. وتبتلع العانس المزيد والمزيد من دواليب الكبريت وهي تجأر، ثم تلفظها على متن سفينة النقل، حيث يقف رجلان آخران يسحبان الكبريت بالمجارف سريعًا. يسأله «نامي»:

هل تتخيل نفسك تقضي بقية حياتكَ في ممارسة هذا العمل الحقير؟

يبتسم «نيكيتيتش» من وراء القناع:

ولم لا؟ أولستُ في الهواء الطلق؟ بلى. أنتَ كذلك! لا أرى ميزة أخرى غير هذه الآن.

يضحك «نامي»:

أنت حيوان!

يقول «نيكيتيتش» وهو يتكئ على المجرفة:

بعد قليل يحين موعد الغداء.

يفكر «نامي» أنه لو كان لديه شيء ليأكله لما استطاع ذلك بسبب ألم في معدته. يرفع رأسه فيرى السماء صافية، وطائرا يطير على مسافة قريبة، وسفينة النقل تهدر في البحيرة.

«نيكيتيتش»!

يقف «كريل» الأصلع على الشاطئ أسفل سير النقل، ويلوح بشيء فوق رأسه. يبدو وكأنه لوح أو مظروف. يلتفت «نيكيتيتش» ويهز رأسه.

هذا لكَ!

ما هذا؟

خمّن! ربما يكون خاطبًا من أسرتكَ، أو أرسلوا لكَ أجرتكَ من الإدارة. أو ربما تكون مجلات التعري التي طلبتها. ربما.

كفاكَ أيها الأصلع. سآخذه منكَ وقت الغداء.

أمسك!

إياك أن ترميه أيها القذر!

يطير الظرف في الهواء، بين «نامي» و«نيكيتيتش». فيهز «نيكيتيتش» يديه، ويفقد توازنه، ويترنح. يحرك يديه في الهواء، وقدماه تهتزان، فيسقط خلف الظرف وسط الكومة. يغلق «نامي» عينيه، ويحاول أن يسد أذنيه. قاع العانس يهتز، وتعلو صرخة ألم، فينتفض القمع للحظات، بعدها يسمع «نامي» صوت «نيكيتيتش» وهو يصيح باستنكار:

يا إلهي! لقد فقدت يدي!

يتخبط «نيكيتيتش» في قاع القمع، ويحاول أن يمسك حائطه بيده اليسرى وبكلتا قدميه. لقد اختفى نصف ذراعه الأيمن. «نامي» ينظر إلى «نيكيتيتش» وهو عاجز عن أن يتحرك أو يصرخ. أمعاؤه لا تعمل. وقاع العانس الدامي لا يتوقف عن الحركة، يفتح ويُغلق بصورة مخيفة. «نيكيتيتش» يكافح، ويضغط بقدميه على حائط القمع. «نامي» يميل ببلادة على فجوة العانس كي يمد المجرفة ل»نيكيتيتش». لكن عينا «نيكيتيتش» تزوغان وكأنه يتبرم من هذا الغبي. لكنه في الحقيقة يفقد وعيه. توقف عن المصارعة وترك جسده ينزلق إلى قاع القمع، حيث قاع العانس المتهالك لا يكف عن الفتح والغلق.

يصيح «نامي» بصوت لا يخرج إلا صفيرًا:

افصل الآلة أيها الأصلع!

«نامي» يلوح بالمجرفة عاليًا، وأخيرًا يراه أحدهم فيفصل الآلة. ينطلق الصفير. حان وقت الغداء.

****

في المساء وقف ينتظر الأصلع أمام المبيت. راح يضربه بقبضة يده مدفوعًا بغضبه. يبدو أخرق وغبيًا. فهو لم يتمرّس على الشجار. ورغم أن الأصلع شعر بالمباغتة وهو سكران، لكنه استجاب للضربة بصورة عفوية. أحكم قبضته، ودكها في بطن «نامي»، فالتوى جذعه وراح يئن، وسرعان ما انتصب. «كريل» يعاود الضربة، لكن هذه المرة على صدغه الأيمن. يسقط «نامي» ويتمدد على الأرض. يضربه «كريل» في بطنه، ويجلس فوقه منفرج الساقين. يحاول «نامي» أن يعيد الضربة لكنها تصيب بطن «كريل» السمينة. يواصل الرجلان الضربات صامتين. حركاتهما تزداد بطأ. يتذكر «نامي» ما كان «نيكيتيتش» يقوله: «الشجار الحقيقي هو الذي يَنْفَضّ سريعًا». لكن استمر هذا العبث طويلًا. يمتص كل ما تبقى له من قوة، فلا يقدر على دفع «كريل» من فوقه. إنه جاثم فوقه مثل شاحنة لوري تحمل أحجارًا.

«نامي» يصفر، و«كريل» ينزل من فوقه، وهو يقول: «أتمنى أن يكون لكَ هذا درسًا لا تنساه». يقف من

فوقه متباطئا، ويتكئ على ركبتيه، ثم يلهث وجسده ما يزال منحنيًا. يقف «نامي» على مهل، ويومئ قائلًا:

بالطبع لن أنساه!

يضرب بيمناه وجه الأصلع. فيسمع صوت طقطقة. «كريل» مُلقى فوق الأرض ويئن. ووجهه ينزف، أو هكذا يراه «نامي» وسط الظلام.

يجمع «نامي» أغراضه ويغادر المبيت. ألم معدته يتراجع، رغم أن وجهه منتفخ منذ بضعة أيام، وعلى الأرجح هو مصاب بارتجاج في المخ.

****

سيارة سوداء كبيرة فارهة، نظيفة وكأنها خرجت للتو من معرض السيارات. المحرك يدور في وداعة وهدوء مثل حيوان شبعان. تتوقف بجوار الرصيف. خلف مقودها يجلس شاب يرتدي بذلة أنيقة. شعره مجعد وطويل، حذاؤه يلمع مثل سطح الماء. يغادر السيارة، ويترك المحرك يعمل. هواء بارد منعش يهب من داخل

السيارة، مفعم برائحة المعطر الفواح. رجلان من الصف الأول للباحثين عن عمل في بورصة العمل غير الرسمية بالمدينة يشرعان في صمت في تلميع مقدمة السيارة. يتجاهلهما الرجل، ويمر وسط العمال. يقع نظره على «نامي». يطأطئ رأسه قليلًا كي يراه من خلف نظارته الشمسية. يشير إلى «نامي» بإحدى يديه كي يصعد إلى السيارة. ثم يعود ليجلس خلف عجلة القيادة، يضغط بأصابعه على فتحتي أنفه. ويندفع بالسيارة إلى الأمام قبل أن يغلق «نامي» الباب.

اسمه «جوني». وقد درس في تكساس، ويعمل الآن في شركة تنقيب أجنبية. «جوني» خبير في الحفارات، والأهم من ذلك أنه يعرف كيف يبيع البترول الذي ينضح من تلك الحفارات. إنه في حاجة إلى من يرعى شؤون بيته. شخص يثق فيه، ولا يتدخل في حياته. لذلك هو لا يبحث عن امرأة أو شخص عجوز. بالتأكيد سيستحم «نامي» أولًا، فالرائحة التي تفوح منه لا تحتمل، ولا يمكنه أن يتولى مهامه على هذا النحو. صوت «جوني» لطيف، وعال ويشبه صوت

النساء. يصمت أحيانًا وهو يفرك أنفه. لا يسأل «نامي» عن شيء، ولا عن سبب قبوله هذا العمل. كل شيء واضح ومقرر سلفًا. «نامي» صامت وهما يمران بالشوارع في السيارة بمحاذاة بورصة العمل. التكييف في السيارة يعمل، فلا يشعر برائحة الفواكه الفاسدة، ولا عفونةِ جبن الماعز. «نامي» لا يتكلم وهما يمران بالأحياء الراقية التي تتزايد فيها أشكال المرمر وأبواب المداخل المرصعة بالذهب. ولا يتكلم كذلك وهما يمران بمحلات «فيرساتشي» و»أرماني»، والبارات الأيرلندية، والمطاعم المكسيكية التي يرتادها الأجانب، بفندق «حياة» ومباني الشركات الدولية المبنية من الزجاج والخرسانة، تقف سامقة تناطح السحاب مثل قضبان منتصبة، شاذة مثل رجل في بذلة أنيقة يقف في طابور بوفيه رخيص.

الحي الذي يقطنه «جوني» هادئ ووديع. والشوارع تكاد تخلو من المارة، فلا يظهر فيها حتى كلب ضال. يُدخل «جوني» السيارة إلى المرآب الأرضي حيث تصطف في صمت سيارات الليموزين الجيب الصفراء

الليمونية، والحمراء، والسوداء. يسمع «نامي» هدير جهاز التكييف وهو ينصرف من السيارة. بعيدًا في نهاية المرفأ ينظف رجل أحدب الأرضية الإسمنتية. يتحدث «جوني» مع أحدهم في الهاتف. قامته مرتفعة، وأطرافه طويلة، يشبه العنكبوت أو البعوضة. يتحرك «نامي»، فيومئ له «جوني» بأن يحمل الأكياس، فيرفع «نامي» بكل إذعان بضعة أكياس بلاستيكية، يحمل بطيخة، وفروالة، وبيضًا. أشياء لم يذق طعمها منذ عدة أشهر. في صندوق كرتوني بضعة زجاجات خمر؛ فودكا وجين، ونبيذ وردي اللون. مازال «جوني» يتحدث في الهاتف، و«نامي» يلحقه، ويحاول ألا يسقط شيئا من يده.

المصعد هادئ، لونه فضي بالكامل، وبه مرآة. يرى «نامي» فيها صورته لأول مرة بعد بضعة أشهر، فيفزع. ظهرت جعدتان بين حاجبيه، وبقعة قذرة انتشرت على وجهه. إن كان هذا هو «نامي» فأين ذلك الصبي من مدينة «بوروس»؟ يعبث بالمرآة، ثم يغلق عينيه.

يتوقف المصعد بروية في الطابق الخامس عشر، ويومئ «جوني» لـ«نامي» دون أيّ كلمة. الشقة واسعة، والحيطان مكسوة بالزجاج من الأرضية إلى السقف. فوق أرضية الشقة سجادة وثيرة بالألوان الطبيعية. وعلى الحائط كؤوس مسابقات صيد. يختفي «جوني» على الفور في غرفة النوم ذات السرير العريض. حيطان الغرفة مبطنة بالمرايا، وأرضيتها مكسوة بسجاد من جلد النمر. يُرِي «نامي» الشقة بعدما يعود: شرفة فيها نباتات غريبة، عليه أن يرعاها، ثلاجة، وغسالة، وميكرويف، ومجفف ملابس. قط رمادي اللون يقبع تحت أريكة مكسوة بغطاء على شكل جلد نمر. يهز «نامي» رأسه، مبديا أنه يعرف كل هذا، فهو ليس ريفيّا ساذجًا.

تطعم القط كل صباح، هذا هو طعامه. تشتري له مرة كل أسبوع كبدة دواجن. لم تر الحمّام بعد؟ أليس كذلك؟

يشمر «جوني» ذراعه، ويعرّف «نامي» طريقة فتح الدّش. يتبلل، فيبتسم. لقد رأى «نامي» الدش من قبل.

لكنه كان عبارة عن رأس صدئة، تتساقط المياه من فتحاتها المتكلسة ضعيفة، إن لم يكن معطلًا. لكنه لم ير في حياته مثل هذا الحمام المطلي بالكروم، والأمطار الصناعية، ونوافير تدليك، وحيطان مكسوة بألواح خضراء ناصعة، وكأنه قد أخذها من مقاتلي «الجماعة الذهبية» النائمين في الجبل البلوري في «كولوس».كل شيء هنا غالي الثمن ومترف بطريقة غبية وغير معقولة.

هذا هو حوض الاستحمام، فيه جهاز تدليك. ممنوع استخدام هذا الحوض. تعال! سأريك أين ستنام.

اندهش «نامي». لم يعن له إطلاقًا أن يؤمّن له مكانًا ينام فيه. لذلك لم يمانع عندما فتح له باب غرفة صغيرة، على أرضيتها حشية، وعلى حيطانها بضعة لوحات مائلة في أطر قديمة. الحشية في حالة جيدة، قديمة لكنه لم ينم على حشية مثلها من قبل. يجلس فوقها بحرص وركبتاه عند ذقنه. تفوح من ملابسه رائحة أسابيع من قذارة لم يغسلها. الحشية طرية ومرنة. رقيقة للغاية، مقارنة بفراش القش البالي في

المبيت الذي سكنته البراغيث. تذكره بالحكايات الخرافية التي كانت جدته تحكيها له، عن غلام فقير وصل إلى قصر القيصر على سبيل الخطأ.

يقول «جوني»:

أفرغ المشتريات، واستحم! رائحتكَ كريهة مثل فوج سائحين روس. ثم أعدّ لي شيئًا خفيفًا للعشاء. في المرة القادمة ستذهب وحدك للتبضع.

يهز «نامي» رأسه. ينظر إلى نفسه في الحمام؛ فيعاوده شعور بأنه يرى شخصًا غريبًا عنه. مثل مخرج أحد الأفلام، يغير فجأة ممثلًا بعدما تطورت شخصيته بمرور الوقت. لقد اشتد عوده كرجل، وتضخمت عضلاته، وثقل حاجباه وذقنه الذي نبت فوقه شعر خفيف. انتشرت خطوط الزغب الداكن على ساقيه وصدره. كيف لم يلاحظها من قبل؟ يغرقها في الرغوة الوفيرة، ثم يمشطها بأصابعه. يترك تيار الماء الدافئ يتدفق وفيرًا على جسده. لا يريد أن يغادر الحمام. ينتظر إلى أن تفرغ المياه، فمن المستحيل أن تظل

تسقط إلى ما لانهاية! لكنها ظلت تسقط. فيخرج «نامي» من الحمام ويضع قدميه المبللتين فوق أرضية رخامية خضراء كالزمرد. يخلف وراءه آثار أقدام برغوة الصابون. المرآة مغشاة ببخار الماء. يمسحها «نامي» فيرى ملامحه غير واضحة، ملامح رجل، لا ملامح صبي، يتساقط الماء من شعره. أعجبته صورته لكنه غير قادر على التماهي معها. يرى شيئًا في المرآة لا يريحه، شيئًا لا يعرفه «نامي»، شيئًا يجذبه إلى فراغ خلف المرآة. يفتح الباب المؤدي إلى الردهة، فيتسرب البخار إلى الخارج. يقف عاريًا تمامًا عند باب الحمام المُترف، والضوء من خلفه. انتصب قضيبه، فعلق المنشفة، وراح يداعبه.

«جوني» يقف عند باب غرفة نومه، يدخن شيئًا رائحته تشبه الفانيليا، ويتابعه باستمتاع. يرتدي «نامي» سريعًا بلوزته البالية، وسروال «أديداس» أعطاه له «جوني». يفتح الثلاجة في المطبخ، ويبحث عن شيء ليقدمه له. أكواب كافيار، ومربى مشمش، وحزمة جزر، وفصا ثوم، وبطيخة، وفروالة، وأيضًا

علبة جبن إيطالي لم تفتح بعد. وكبد دجاج كريه الرائحة، وشمبانيا، كثير من زجاجات الشمبانيا، وزبد، وبيض. ماذا سيفعل وهو لم يطه شيئًا في حياته؟ راح يصارع في هدوء مع لوح من زجاج السيراميك، ثم ألقى في المقلاة قطعة زبد، وعندما رأى رغوة ذهبية محترقة تتكون ألقى فيها ثلاث بيضات. ثم زينهما بجبن الجونجزولا، وملعقة كافيار.

العشاء!

نادى على «جوني»، ثم هز كتفيه. «جوني» يرقد في سريره، يداعبه النوم. سريره واسع يتسع لطائرة هليكوبتر. ينام القط عند إحدى قدميه، ورمق «نامي» بنظرة عدائية. بجوار السرير كومودينو صغير ذو درج موارب. يرى فيه «نامي» بضعة أكياس بلاستيكية صغيرة وبندقية. يلاحظ «جوني» نظرات «نامي» ويومئ له. ينهض ويذهب إلى المطبخ. يتناول الطبق، وينظر إليه بشك، ثم يشمه، بعدها يلقي بكل ما فيه في مطحنة الفضلات. يزدرد «نامي» ريقه وهو يسمع صوت الطعام يدور في المطحنة. «لم أعد أشعر

بالجوع»، يقول «جوني»، ويفتح مبرد الثلاجة ويخرج منه زجاجة فودكا، ويختفي معها في غرفة النوم. يغسل «نامي» الطبق صامتًا، ثم يجففه، ويعيده إلى مكانه. ثم يجلس على المقعد بجوار الطاولة، وينظر من النافذة. يرى في البعد من الطابق الخامس عشر أكشاك سوق العمل، وحي فيلات السكان القدامى. يرى الميناء وأمواج البحيرة، الناقلات وأبراج النجم. الرياح تصفر برتابة خلف النافذة، و«جون» يتحدث في الهاتف. يسمعه «نامي» يرفع صوته. إنه مرهق، ويرغب في الانصراف للنوم. يشغل تلفزيونًا فوق الحائط، ويضع رأسه فوق الطاولة، ويستسلم للنوم.

****

توقظه الأصوات بعد بضع ساعات. الظلام قائم في الخارج، والشقة تكتظ بالناس. رجلان سمينان يرتديان معطفًا جلديًا، وشاب تفوح منه رائحة ذكية، يبدو وكأنه سقط من لوحة إعلانات ضخمة تعلن عن شيء فائق النظافة. ثلاث فتيات شابات بسيقان طويلة لامعة، وحلي وفيرة تتلألأ، مشغولتان همسًا بمناقشة

أمر ما. تبتسم واحدة منهما، تلك الفتاة السمراء ذات العينين المتباعدتين قليلًا، وتعلق دوائر فضية في أذنيها، وتقول: „هل استأجرت مديرًا للمنزل يا جوني؟“. تمد جسدها أمام „نامي“ وتحتك به وهي تتناول زجاجة شمبانيا من الثلاجة. „جوني“ يتكئ على خزانة المطبخ ويراقب الفتاة وهي تلامس „نامي“. يقاوم „نامي“ كي لا يلمس ثديها الذي يتأرجح فوق كتفه.

يقول „جوني“ بكل برود:

أمسكِي نفسكِ أيتها الجميلة!

ترتسم الجدية على وجه الفتاة، وترمق «نامي» بكل اهتمام. ثم تقول بحزن وهي تملس على وجه «نامي»:

يا له من ظبي صغير!

اهدئي يا ديانا وكفي عن الشراب!

يضحك «جوني»، ويدفع الفتاة أمامه إلى غرفة النوم. ينهض «نامي»، ويذهب للنوم في غرفته الصغيرة. رأسه مخدر، وعيناه تنغلقان رغمًا عنه. يسمع لطمة جماع شديدة، ارتطام شديد للحم بلحم آخر، يصفق كصوت شراع في الهواء. الفتاة تئن للحظات، ثم تنتقل إلى صراخ متصل. يتقطع الصراخ ثم يصمت. ينام «نامي» قلقًا، ويبقى كذلك حتى الصباح. عندما يستيقظ، يجدد هواء الشقة، وينظف الطفايات، ويجمع الكؤوس، ويغسل الأطباق، ثم يلقي بالقط في الشرفة. إحدى الفتاتين نائمة فوق الأريكة في غرفة الاستقبال، وفستانها الذهبي مشمر حتى خصرها، وبدون سروالها الداخلي. يتوقف «نامي» عندها للحظات يرمق ما بين فخديها وقد خلا من الشعر، تذكره بالقطة «سنا» التي كانت تتمرغ بوقاحة في شمس ما بعد الظهيرة عند عتبة الباب في مدينة «بوروس». ينظر إليها وهو يفرك ذراعه الأيسر. يظن أن الجو اليوم سيكون حارًا. تتحرك الفتاة، فيهرول «نامي» إلى المطبخ هربًا فوق أطراف أصابعه. تغط الفتاة بهدوء، وتستدير على

جانبها الآخر. يظل «نامي» طوال اليوم أسير أفكار لا تبرحه حول طبيعة المهبل العاري.

****

مرت الأيام التالية بنفس الإيقاع. يستيقظ «نامي» في الصباح، ويعد الفطور ل«جوني» الذي عادة ما يتركه في الطبق ليبرد، ولا يشرب سوى القهوة. يشرب لفافة الصباح، ثم ينصرف إلى العمل. يأكل «نامي» فطور «جوني» البارد، ويرتب الشقة، ثم يغسل الملابس، ويطعم القط، ويسقي الزهور في الشرفة. بعدها يذهب للتسوق، ويقضي باقي اليوم في لا شيء. أحيانًا يشغل التلفزيون، لكنه لا يجذبه كثيرًا. أحيانًا يذهب للتمشي؛ كثيرًا ما يقصد المنتزه، ويتحدث مع «ميمون». يأخذ منه القرد تفاحة، أو رقاقة حلوى، لكنه لم يعرب ل «نامي» مطلقًا عن أن وجوده مرحب به، أو أنه يتذكره من اليوم السابق. ينصرف إلى أحد الأركان، ويأكل الطعام في هدوء. لا يُظِهر أية علامة امتنان أو ثناء.

سمح «جوني» ل«نامي» بأن يستخدم الهاتف كلما احتاجه. لكن «نامي» لا يعرف أحدًا ليحادثه. يتصل بأرقام الشراء عبر التلفزيون، وخطوط الخدمات الجنسية عبر الهاتف التي يراها في التلفزيون، يتحدث مع الموظفات، فلا يشعر بالوحدة، على الأقل بصورة مؤقتة.

أحيانًا يقوم «نامي» بنزهات غير اعتيادية، يذهب إلى شارع الميناء، ويأخذ طرودًا صغيرة من شاب يرتدي بلوزة مخططة ويبدو مثل المومياء. الشاب صامت، لا ينبس بكلمة واحدة. ينظر إلى «نامي» بعد أن ينصرف. يظنه أخرس. يدس الطرد المحفوظ في ظرف بني في جيبه، ويجلس عند رصيف الميناء. يتابع السفن الضخمة وهي تغادر مُثقَلة بحمولاتها حتى أن حد الغطس المسوح يسقط تحت سطح الماء. يبصق في الماء. أحيانًا يتجاوز الميناء ويذهب إلى شاطئ المدينة كي يسبح هناك. تغير لون المياه الذي كان يعرفه في طفولته بين الأزرق الفيروزي، والأخضر الزمردي، وأصبح الآن لونًا يشبه طينًا متعفنًا براقًا.

صارت المياه مالحة فاختفت منها الأسماك. يمكنه أن يرقد فوق سطح الماء وكأنه متمدد فوق عوامة منفوخة بالهواء. يطال الماء جسده واهنًا. رأسه مستقرة على وسادة مالحة. في البيت يقف طويلًا أسفل الدش يغتسل كي يتخلص من حكة كريهة ألمت به. ظهرت ذات مرة دوائر حمراء على كل جسده، توقف بعدها وإلى الأبد عن الاستحمام في البحيرة.

مازال يداوم على التجول في شوارع المدينة، ينظر في مقاهيها، ومحلات المقامرة، وباراتها المفعمة بالدخان. إنه على قناعة بأنه سيلتقي بأمه حتمًا طالمًا كان هذا مُقدرًا. يكفي أن يكون في المكان المناسب في الوقت المناسب. لا يعرف كيف سيحدث هذا، ولا شكل أمه، لكنه على قناعة بأنه يجب أن يواصل البحث عنها. يلتقي وهو يمر بالشوارع في ساعة مبكرة بمشردين نائمين في صناديق من الكرتون، يرتدون ملابس قذرة ورثّة. يشعر بجنيّة البحيرة ترفرف فوقهم.

غالبيتهم من الأوروبيين الذين تم ترحيلهم منذ سنوات طويلة من بيوتهم عندما قاموا بتوسعة البحيرة، وكان من الضروري إغراق بضعة قرى. وقتها شرع الأوروبيون في التظاهر، وأحرقوا الشاحنات الروسية، ومعدات البناء. لأن ما حدث حال دون زيارتهم لمقابر ذويهم. يقال إن سياسيا كبيرا وقتها أمر بالقضاء عليهم. ومن نجا منهم يعيش الآن في شوارع العاصمة، يحكون كيف قامت قوات مجهولة بشحن أسر بأكملها، وقبائل في الشاحنات، ثم وضعتهم في حفر في الغابة حفروها بأنفسهم، وأطلقت النار عليهم. ظن «نامي» أنها حكاية ملفقة، مثل أسطورة محاربي «الفرقة الذهبية» النيام في صخرة «كولوس». كان يرى الأوروبيين أشخاصًا بائسين وحكاياتهم غير حقيقية، رغم ذلك كان كثيرًا ما يتحدث معهم. أحيانًا يعطيهم من خبز «جوني» أو قطعة من رقائق اللحم، أو خضارا وهو عائد من التسوق. يسكنون الخيام، ويبيتون في ملاجئ من ورق الكرتون، لا خوف منهم، حتى في تشاجرهم ومناوشاتهم وهم سكارى لا يؤذون أحدًا.

****

كثيرًا ما يستقبل «جوني» زيارة في المساء في بيته. تأتيه مجموعة من أناس ضاجّين، وأحيانًا تزوره «ديانا» وحدها، تلك الفتاة ذات الشعر ال»كاريه» الأسود، وفجوة بين أسنانها الأمامية العليا، ودوائر كبيرة في أذنيها، وعادة ما تنتهي مثل هذه الزيارات بجماع صاخب في غرفة نوم «جوني». أحيانًا لا يعود «جوني» إلى البيت في المساء. يعود في سيارة أجرة في الثالثة أو الرابعة صباحًا. يوقظ «نامي» من نومه وهو يرغب في المسامرة، وأحيانًا يسقط قبل أن يصل غرفة نومه. فيضطر «نامي» إلى أن يخلع عنه ملابسه، ويشير إلى السرير، ثم يسخن له الحليب كي لا يتقيأ.

«جوني» لا يعطيه راتبًا، لكنه يحتفظ بما يتبقى من نقود التسوق، والمهمات المختلفة. كما أنه يقيم معه، ويوفر له الطعام، ويعطيه ما بلي من ملابسه. فضلًا عن أن «جوني» يوفر له مجلات إباحية حقيقية لا تباريها صفحات كتالوج الملابس الداخلية التي كان «نامي» يقتنيها. يتركها له، وكثيرًا ما تكون هذه

المجلات جديدة، ومغلفة بغلاف بلاستيكي. اختفى تدريجيًا صوت «جوني» القادم من غرفة نومه.

****

افتتن «نامي» وهو يدخل خلف «جوني» لأول مرة إلى مكتبه في الطابق الأخير لأحد المباني الشاهقة الذي تملكه بأكمله شركة نفط دولية. سجادة فاتحة تغطي الأرضية من الحائط إلى الحائط، وعلى الجدران لوحات. في المكتب أناس تفوح منهم رائحة زكية، يرتدون ملابس رسمية، ويتحدثون بأدب بصوت خفيض. وخلف مكتب الاستقبال تجلس فتاة شقراء ممتلئة الجسم، وكأنها فتاة من المجلات الإباحية التي يشتريها «جوني»، وعلى كل طاولة جهاز كمبيوتر يئز. وفي مطبخ صغير آلة تحضير القهوة فضية برّاقة، ترفض أن تعطي «نامي» قهوة. الهواتف لا ترن، بل تصدر طنينًا رقيقًا. لو أراد «نامي» أن يكون صريحًا مع نفسه لأقر بأنه يحلم.

****

صيف قائظ على غير العادة، وبخار الماء يتصاعد من البحيرة أسرع من أي وقت مضى، وكأنها تحولت إلى مستنقع. «نامي» يعرف أن «جوني» يحتفظ بمسدس أو بندقية في كومودينو سريره، ولم يتوقف يومًا عن التفكير في هذا الأمر. فزع وتلعثم يومًا عندما رأى «جوني» يقف عند الباب ويحمل في يده البندقية. ضحك «جوني» بدهاء. وراح «نامي» يراقبه بطرف عينه. رأى أن «جوني» منتبه ومتيقظ، فاطمأن قليلًا.

يقول «جوني»:

اصنع لي قهوة، وسأخبرك بعدها بما سنفعله اليوم.

وَجِلَ «نامي» قليلًا من نبرة الإثارة الدفينة في صوته. أخافه أيضًا زي «جوني» العسكري. آخر مرة رأى فيها الزي العسكري ومعه البندقية كان في «بوروس». هذه الذكرى التي مازالت توقظه من نومه فزعًا من وقت لآخر. يكرر «جوني»:

سأخبركَ بما سنفعله اليوم.

يقول «جوني» إن الأمر يتعلق بعمل أوكل إليهم من إدارة المدينة نفسها. اختار كبار الموظفين في بلدية المدينة مواطنين محل ثقة. اختاروا بالطبع من يملكون السلاح، ويتمتعون بمهارة الصيادين. بالتأكيد كان في مقدورهم إشراك الشرطة أو الجيش في العلمية، لكن هذا يتعارض مع التقاليد وأخلاق المهنة. ألا تتفق معي أن كل رجل شريف مسؤول عن أن يحول دون وقوع الكارثة؟ ازداد «نامي» ارتباكًا بعدما تحدث «جوني». فعلى مدى البصر وبعيدًا عن الميناء بحوالي ستة أميال توجد جزيرة. عليها معمل بيولوجي. لا بد أن «نامي» سمع به من قبل، نعم، إنه معمل يستخدم في اختبار الأسلحة البيولوجية على الحيوانات، نعم. الجمرة الخبيثة، والطاعون، والبروسيلات، أو الحمى المالطية أو حمى البحر الأبيض المتوسط أو شيء من هذا القبيل. لقد رحل الروس عن هذه القاعدة منذ زمن، وتركوا الحيوانات هناك لقَدَرها. كثير من هذه الحيوانات في حالة جيدة حسب الأخبار التي تأتي، من وقت لآخر، من سفن الصيد التي تمر بالجزيرة، وقد سيطرت تلك الحيوانات

على الجزيرة؛ الكلاب، والغنم، والفئران، كلهم مجتمعون. وكلما انخفض سطح البحيرة تعاظم خطر أن تقوم هذه الهوام بالعبور إلى اليابسة، وتهلك العاصمة بالأمراض التي لا قِبل لأحد هناك بها.

لذلك من واجب أي رجل يحمل في نفسه قدرًا من الكرامة والقدرة أن يحصل على سلاح لكي يؤدي واجبه. من أجل فعل الخير. بالطبع سيتصدر «جوني» الصفوف، وسيحمل له «نامي» السلاح، ويلقمه بالرصاصات. حسنًا؟ لماذا إذن غرق «نامي» في عرقه. اللعنة! هل الجو حار إلى هذه الدرجة؟ هز «نامي» رأسه، لا. الحرارة ليست مرتفعة إلى هذا الحد. لا. لن يقوم بتلقيم أي بندقية. سيبقى «نامي» في البيت مع مجلات التعري في سرير «جوني». لكن «جوني» لا يلتفت إليه. تصعقه فكرة القتل أكثر من فكرة تناول الكوكايين. فليُعِدّ «نامي» كُرَات اللحم للرحلة، بالتأكيد سيجوع الشباب. يخرج من البيت في الصباح الباكر. قبل انبلاج الفجر.

يقف «نامي» طوال الليل يطهو كرات لحم الضأن. بعد أن ينتهي يكون قرص الضوء الوردي الخافت قد انبعث، ولا داعي من أن يذهب للنوم. يأخذ «نامي» سلة من أغصان الشجر، ويضع فيها ثلاث زجاجات فودكا، وثلاثين كرة لحم، كل كرة مغلفة في ورق ألومينيوم، وخبز، وبضعة بصلات، وعشرة علب سجائر. ويجلس ينتظر عند طاولة المطبخ، يتابع شروق الشمس، ويلوك في فمه سَاهمًا بقايا خبز الأمس. يراوده حلم فيعض ظفر إبهامه. ينهض في الخامسة، ويذهب لإيقاظ «جوني». لكنه يجده جالسًا في سريره، ويثبت حول خصره حزام الذخيرة، وقد ارتدى سترة الصيادين المليئة بالجيوب. يومئ ل «جوني» ويحيّيه بذهن شارد. لكنه بعد تناول أول كوب قهوة يسترسل في الحديث من جديد بكل حماس ليقنع «نامي» بالواجب القومي الذي هم على وشك أن يقوموا به، وأن الوطن سيكون مدينًا لهم بالعرفان.

يذهبان إلى الميناء. هناك يوقف «جوني» سيارته، ثم يتوجه بانفعال نحو الرصيف، حيث ينتظر كثير من الوطنيين الأوفياء بنفس السترة الغبية، ونفس التعبيرات تغطي وجوههم. يحكمون قبضاتهم على بنادق الصيد في أيديهم بكل انفعال. يضع أحد الأغبياء حول وسطه حزام ذخيرة. يبدو أن بعضهم لم يذق طعم النوم، أعينهم محتقنة بالدم، وتعبيرات السكارى البليدة على وجوههم. الرجال صامتون، يدخنون السجائر، وأحيانًا يسعل أحدهم، أو يبصق. يتداولون بينهم بضعة زجاجات فودكا مرة واحدة.

****

عدد القوارب عشرون على الأقل. لم يتمكن «نامي» من إحصائها. الرياح تهب، وقمم موجات المياه بيضاء.

يا له من قيء سيسقط اليوم!

يقول الملاح فوق القارب الذي يحمل «نامي» و«جوني». اسمه «فاسكا». يرتدي بلوزة مخططة بخطوط باهتة، ويعمل بحارًا منذ عشرة أعوام. يسمع

«جوني» ما يقوله الرجل، فيعقد وجهه. «أتعرف ما هدف هذه المأمورية؟». يجيبه «فاسكا» وهو يضحك:

بالطبع أعرف، إنها مأمورية هامة! بل هامة للغاية!

إنه هنا في الماء سيد الموقف، وأي ثَرِيّ حقير من المدينة لا يسعه هنا إلا أن يجلس صامتًا فوق دكة المسافرين، ويسعى إلى ألا يتقيأ. هذا ما كانت عيناه تقولانه، و«نامي» يبتسم. هذا البحار له عينان تشبهان عيني جده. إنه أمر لا يعرفه أحد غيره. ظل «جوني» عابسًا حتى نهاية الرحلة التي استغرقت أربعين دقيقة تقريبًا. إلى أن ظهرت الجزيرة من بعيد. عندها ابتهج، وبدأت عيناه تلمعان من الإثارة.

حادثة واحدة فقط. سقط رجل من القارب، ووعكة صحية كبيرة ألمت ببعض الرجال بسبب الموجات العاتية، وما سبقها من شرب الخمر. تتوقف الحملة، ثم تنطلق بعد انبلاج النهار صوب جزيرة كانت تستخدم للتجارب البيولوجية. لكن لا اسم لها.

يحاول «نامي» عبثًا ألا يستسلم للنوم. يصحو دائمًا كلما سقطت رأسه على صدره فجأة. يوقظه صوت «جوني»:

انظروا إلى هذه الكائنات اللعينة! يبدو أنها في انتظارنا!

بالفعل هناك قطيع من حيوانات يصعب تمييزها يقف على شاطئ المرسى.

أغنام؟

بالطبع لا، إنها كلاب! البس نظارتكَ!

أنا أرى قرودًا!

أيها الأغبياء! لقد نال منكم الخمر!

«نامي» ينظر إلى الشاطئ. لقد اتضح كل شيء للجميع. هذه الرؤوس المتراصة عبارة عن قرود، وخراف، ودجاج، وكلاب. كل الحيوانات تقف مترقبة

عودة أحبائها البشر الذين اختفوا فجأة، وتركوها تنتظر في شوق. تقف الكلاب في المقدمة، حوالي اثني عشر كلبًا من أعراق مختلفة، تراقب في شغف وهي تهز ذيولها مع اقتراب القوارب. يقف خلفها على مسافة معقولة قردان صغيران، يمسك كل منهما ذيله، ثم تتلوها الخراف بنظراتها الغبية المعروفة، وكائنات صغيرة أخرى لا يمكن تمييزها من القارب. لا توجد أية علامات على المرض على أي من الحيوانات. يزفر البحار «فاسكا» بصوت عالٍ:

مستحيل! إنهم يعيشون هنا سويًا وكأنهم في الجنة. الذئب بجوار الحمل. اللعنة!

ينبح كلب أبيض ورديّ، وله أذنان طويلان. يتقدم إلى الأمام بحماس عند سماعه صوت القوارب، ثم يعود، ثم يتخطى الفاصل الطيني. تغوص أقدامه في الوحل، ويسحبها بصعوبة. تتسارع دقات قلب «نامي» عنيفة، ويهمس قائلًا:

اهرب أيها الكلب الغبي!

يصيح جنرال متقاعد:

لا تطلقوا النار!

لكنه بعد فوات الأوان. فقبل أن يكمل الجنرال جملته طارت أولى الطلقات التي أصابت الهدف بدقة، على غير المتوقع. الكلب يعوي، ثم يسقط مترنحًا في الطين. يرى «نامي» شعره الأبيض كالحًا، يتلون بلون الدم والطين. رأس الكلب تغوص تدريجيًا في الوحل، وتبقى أذناه ملقاة فوق سطحه، ويخرج من أنفه بضعة فقاعات وردية اللون. يرتعد «جوني» من الإثارة وهو يعض على شفتيه بجوار «نامي». «جوني» خريج جامعة هيوستن، وموظف في شركة عابرة للقارات. ينظر «نامي» بين فخدي «جوني» فيرى قضيبه منتصبًا، فيشعر بالغثيان.

****

يجلس "نامي" على دكة المسافرين، وهو يحدق في صندوق خشبي فوق ركبتيه، به قنابل. مدموغة بأحرف، ضيق "نامي" حدقتيه ليقرأها، لكنه عجز.

سادت حالة من الهرج والمرج على الشاطئ. سقطت ذيول الكلاب، وراحت تنظر ثم تختفي سريعًا، والخراف تثغو بصوت واحد، وتتقدم من الصخرة كرجل واحد. القرود تتعانق في ذعر. بدأ الرجال في القفز من القوارب، واجتياز الماء نحو الشاطئ. يسقطون في الوحل، فيسبون ويلعنون. يتخبطون وهم في هرج ومرج. يتمنون لو اختفت الحيوانات، لما اضطروا إلى أن يطلقوا العنان لبنادقهم. يحاول الجنرال المتقاعد أن يقودهم، لكنه عاجز عن أن يرفع صوته فوق صوتهم وسط هذا الهرج.

المهم ألا تلمسوا هذه الحيوانات أو تقتربوا منها. فهي غالبًا مُعدية.

لا أحد يسمع الجنرال، ولا يستجيب لما يقوله. الخراف تتقدم من قمة الصخرة، وكأن جرّافة تدفعها إلى هناك: «اسمعوني!»، يصرخ، لكن من الصعب أن يصلهم صوته.

«كفى!»، يصيح «نامي» وسط قصف البنادق، فلا يعيره أحد اهتماما. غادر «جوني» المركب منذ دقائق، ولم يلاحظ أن خادمه لا يرافقه.

غريزة القطيع تدفع الخراف إلى الأمام دون توقف، وبدأت الخراف في المقدمة تتساقط مع صوت لطمات قوية. تنكسر أقدام بعضها فلا تستطيع جرها في الوحل، فيزداد صراخها. ومن تمكن منها من الخلاص من وسط الطين بمعجزة يغوص فيه بعدها بلحظات تحت أقدام زملائه.

اختار القردان حيلة تفاوضية؛ لم يحاولا الهرب، ما يعني نهايتهما المحدقة. فلم يبق في المكان الذي كانا يتعانقان فيه منذ قليل سوى بحيرة من الدم والشعر. «نامي» يجلس القرفصاء فوق القارب، وعيناه مغلقتان بقوة. «فاسكا» يدخن في صمت. حشود الرجال على الجزيرة تتباعد مخلفة وراءها آثارا من الطين والدم. وقطيع الحيوانات المتبقية التي تتراجع يظهر برقًا مثل زينة إعلانية تفجر كرات من الدم الأحمر. تتابعهم من بعيد مجموعة من المتطوعين من الدفاع المدني

يرتدون زيّا أسود، وأقنعة على وجوههم، ويجمعون الحيوانات النافقة في جوالات سوداء كبيرة. سيحرقونها لاحقًا في أفران ضخمة مخصصة لحرق جثث الموتى.

يقول «فاسكا» وهو يرى مجموعة الرجال تختفي وراء الهضبة:

فليأخذهم جميعًا ذلك الانتراكس. بالتأكيد لن يسعى أحد هنا إلى تقديم الإسعافات الأولية لهم.

تتحقق أمنيته بعد لحظات: يظهر من خلف الهضبة ظل رجلين يحملان في ضوء شمس الصباح وفوق أرض دامية جسد رجل ثالث. يرفعانه فوق الطين إلى أقرب سفينة، ويناديان على ربانها أن يشغل محركها على الفور ويستدعي عبر اللاسلكي سيارة إسعاف لتحضر إلى الميناء فورًا. في مقدور «نامي» أن يرى الرجل على بعد ما يقرب من عشرة أمتار: جرح دام في جنبه، ورأسه مائل على أحد جانبيه. نظرته تائهة مثل نظرات الخروف عندما كان جده يذبحه: فبعد المقاومة الأولى

تختفي القدرة على المقاومة مع نزيف الدم، ويحل محلها استسلام هادئ. يعرف «نامي» أنهم لن يعودا بالرجل الجريح إلى السفينة وهو على قيد الحياة. وهذا لا يجعله راضيًا، بل غاضبًا.

يقول البحار «فاسكا»:

هذا الرجل قد فارق الحياة.

يهز «نامي» رأسه. ينطلق المركب بهوادة عائدا إلى العاصمة وهو يحمل المتوفى. يسأل «نامي» وهو يعض على شفته:

ألن يقدموه ل «جنيّة البحيرة»؟

لن يفعلوا أيها الشاب!

يضيف «فاسكا» بعد أن بصق في الماء:

سيحملونه إلى مشرحة المدينة، ثم يكفنونه، ويحفرون له حفرة في المقابر. سيعلو عويل النساء، وسيتظاهرن

بأنهن سيقفزن وراءه في الحفرة، لكن لا تخف! فلا واحدة منهن جادة في الأمر.

«لكن هذا سيغضب جنيّة البحيرة»، يجيبه «نامي» مستنكرًا. فيضحك البحار وهو يهز كتفيه:

بالتأكيد! انظر! ها هي الفرقة الذهبية تعود!

يظهر القناصة من خلف الهضبة. يتقدمهم ثلاثة رجال يتحدثون بصوت عال، أما الباقون فيمشون صامتين، إما فرادى أو أزواجًا. الشمس ترتفع عاليًا في السماء، والساعة قاربت العاشرة. بدأت حرارة الهواء تشتد، والعرق يتصبب من رجال يحملون صدرية القناصين. بعضهم مضرج بالدم، وآثار قيء على سروال شاب نحيف لا أهداب له. المتطوعون من رجال الإسعاف ينظفون الشاطئ بلا توقف. لم يكن هناك أثر لأي جثة أخرى في أرجاء الشاطئ، باستثناء الخراف التي سقطت في الوحل. تنتشر أخبار الرجل الذي لقي حتفه، فيغرق الرجال في الحزن. الجنرال المتقاعد يدعوهم للانتباه، والوقوف دقيقة حداد.

يخلع الرجال قبعاتهم، ويهمهمون.

أيها المجتمعون! لقد أديتم الواجب. الخسائر في إطار المسموح به! لكم تحياتي! انصراف!

****

بقي «نامي» للحظات يتابع جسد «جوني» وهو يترنح فوق الشاطئ مثل العنكبوت، ويبحث عنه وسط الحاضرين. زال عنه التوتر، وسقط كتفاه إلى الأمام من الإجهاد، ومن جديد يرى غِلَظ جسده وافتقاره إلى القالب الرياضي. شعره الأجعد يتدلى مسترخيًا أسفل قبعته، ووجهه ملطخ بالعرق. يصيح:

«نامي»! أين أنت؟ اللعنة!

«نامي» يزفر، ويضع صندوق الذخيرة جانبًا، ويقبض ببطة ساقه جيدًا على سلة الطعام. يهم واقفًا، ويقفز من السفينة. يسقط في الماء فيغطيه حتى صدره. يخوض فيه بمحاذاة المركب ويتوجه إلى مقدمتها. هناك يناوله «فاسكا» سلة الطعام التي يحملها «نامي»

فوق رأسه ويعبر بها الوحل. يجتاز الوحل بصعوبة؛ قدماه تغوصان وهما تلطمان الوحل. في كل محاولة للتقدم خطوة إلى الأمام يتذكر «نامي» قصة الشمندر. رائحة الطين كريهة. لا يعرف أن آثار أقربائه، جده وجدته، قد اختلطت بهذا الطين في البحيرة. بإمكانه الآن فقط أن يستلقي فوق منشفته على رصيف المدينة، يتابع الشمس التي تنعكس على صفحة الماء. لا يرغب في أكثر من هذا. يصيح «جوني» بمجرد أن يراه يشق الوحل:

أين كنت؟ أين كنت أيها الحقير؟

«نامي» لا يرد. ويقبض على فكيه.

كيف لا تكون بجواري وقت الشدة، أيها الفلاح القذر؟ حين كنت بين الحياة والموت؟ أنا أطعمكَ، وأكسيكَ وأنت تخونني؟

«نامي» يمشي في الوحل، وما أن يصبح قريبًا منه بدرجة كافية يضربه في صدره فيفقد «نامي» توازنه،

ويترنح. يميل إلى الخلف، ويسقط في الطين لأنه عجز عن تحريك قدميه الراسخة في الطين إلى الخلف. لكنه يتمكن من الإمساك بالسلة التي وضعها فوق صدره. يضحك الرجال.

ينفجر «جوني» في الضحك، ويصيح كالمنتصر:

لقد جاءنا الطعام!

يرفع السلة فوق رأسه، ويميل على «نامي»، ويقول بصوت منخفض:

سنسوي الأمر معًا لاحقًا!

كلا!

يعتدل «نامي» بشكل أخرق، سرواله من الخلف مغطى بالوحل النتن، والموقف كله لا يسمح له بأن يخرج منه بشكل لائق، ثم يضيف:

كلا، سنسويه الآن!

«جوني» يلتفت نحوه بدهشة، لكن «نامي» قد انطلق، واصطدم به بكتفه بكل قواه. صرخ «جوني» وسقط في الوحل. إنه يمسك سلة الطعام بإحدى يديه والبندقية باليد الأخرى. فلم يستطع أن يمنع نفسه من السقوط. يقع فيصدر صوت لطمة عالية، وطفرات الوحل تتطاير. يسقط بكامل جسده: القبعة تسقط من فوق رأسه، وجعدات شعره الجميلة تلتصق بالوحل البني البراق. تتدحرج كرات لحم الضأن المغلفة بالسلوفان فوق سطح الطين مثل حبات زئبق من مقياس حرارة مكسور. وتنطلق صرخة من وسط عيدان القصب لبطة منسية، فيصيبها أحد القناصين بطلق ناري. فيسقط الطائر قريبًا منهما مع صوت لطمة خفيفة.

يقف «جوني» على قدميه بعد محاولة، وقد اعوج وجهه، وتغر فاه.

يقول بغضب:

سأمنحك فرصة الهرب! سأعد إلى العشرة، وبعدها سأطلق النار!

يضع «جوني» يده على خصره ليسحب السلاح، ويشرع في ملئه بالذخيرة. يعد بسرعة كبيرة. وصل إلى رقم سبعة قبل أن يصل «نامي» إلى الشاطئ. «نامي» يجري بأقصى سرعة له، فهو يعرف أنه جاد. تعوقه قدماه التي أثقلهما الطين، واكتسى حذاؤه بطبقة ثقيلة يشعر معها وكأنه يحمل بطيخة في كل قدم. بدأ «نامي» يراوغ وهو يجري بعدما سمع رقم تسعة. «جوني» يطلق طلقتين. «نامي» يعد رقم عشرة وهو يجري في خط مستقيم، بينما «جوني» يحشو بندقيته، ويشرع في إطلاق النار. فيتلوى «نامي» وهو يجري. يسمع رفقاء «جوني» يشجعونه بسعادة. وبعد ست طلقات يصل «نامي» إلى قمة الهضبة، وتحين فرصة «جوني» الأخيرة في إصابته.

يسمع صوت الطلقة تصفر بجواره، فيسقط في الوحل. ويصنع فيه فجوة تكفي ليَده. يطلق «نامي» صرخة شك، ويسقط على الأرض، ثم يتمرغ ليسقط من فوق

قمة الهضبة. يلهث بسرعة مثل الكلب بعد أن نقص الأكسجين في صدره. يقبض على رقبته ويتطلع إلى السماء. سحب بيضاء تتحرك فوقه في السماء بهدوء ووداعة، وبعد لحظات يهدأ «نامي» وتنتظم أنفاسه. يرفع رأسه من خلف حزمة جافة من نبات الأليس، يرى أن «جوني» لم يعد يتابعه: يتكئ على بندقيته، ويده بجوار أذنه. على الأرجح يتكلم في الهاتف.

****

ظل «نامي» قابعًا على جانبه لمدة طويلة، يتابع السحب، وهو يشعر بالطين يجف ويتجمد على جسده. يسمع محركات القوارب تدور لتحمل الأبطال العائدين إلى المدينة. وأخيرًا سيبقى وحده: صار «روبنسون» فوق جزيرة بلا حيوانات ولا أشجار، جزيرة مفعمة بالأمراض. لم يستطع أن ينطق اسمها. جعله هذا الموقف يشعر بدوار يمنعه من التفكير.

يقف، ويتقدم من قمة الهضبة. الجزيرة ليست كبيرة، تمتد من الشمال الغربي، وحتى الجنوب الشرقي.

أطول مسافة فيها من أقصاها إلى أقصاها لا تتعدى الكيلومتر الواحد. يوجد في الناحية الجنوبية الشرقية مرفأ صغير، وقف عنده فريق القتلة، والآن صار مهجورًا. في الناحية المواجهة من الجزيرة، وعلى عكس توقعاته، كان أعضاء وحدة الإسعاف بستراتهم المعقمة السوداء مازالوا ينظفون. يتحركون ببطء شديد مثل الخنافس. لم ينتهوا من عملهم بعد. وبالقرب من المرفأ يوجد مبنى اسمنتي باهت اللون. إنه المعمل.

****

ترفرف على سارية قصيرة أمام المعمل بقايا علم قديم اختفت معالم ألوانه الأصلية. اختفت أيضًا بعض نوافذ وأبواب المعمل، والبعض الآخر مازال يتدلى في مفصلاته. وجدَت نبتة متعرشة طريقها إلى داخل المبنى من خلال النافذة، لكنها جفت في منتصف الطريق بعد أن أعيتها المحاولة. بوابة الدخول أكثر قوة، لكنها عصية على الفتح أو الإغلاق وسط كومة التراب الذي تجمع حولها. وفوق البوابة لافتة بأحرف

حمراء باهتة: احترس! أنت تدخل منطقة بيولوجية شديدة الخطورة. التزم بتعليمات الأمان!!

خلف الباب توجد تعليمات الأمان مَعلقة وراء زجاج متصدع. وآثار عشرات الحيوانات وسط التراب فوق الأرضية، وبضعة علب بسكويت، وعلبة لبن محفوظ فارغة. وفوق كل باب في الدهليز مصباح تحذيري في غطاء بلاستيكي، بالتأكيد كان يومًا ما أحمر اللون. لكنه الآن متهشم. نَحل يطنّ في أرجاء الدهليز، ثم يطير إلى الخارج من خلال البوابة من وراء ظهر "نامي".

أقفاص وصناديق في عدة غرف، بعضها مازال مُغلقًا. لقي ساكنوها بالطبع حتفهم، وتولت الطبيعة محو آثارهم فلم يتبق منهم عظمة واحدة. لم يبق في المعمل سوى الأشياء الثقيلة التي صَعُب نقلها. طاولات فولاذية ثقيلة، صناديق بلاستيكية شفافة، وعلب معدنية، وحيطان زجاجية متهشمة. زجاج المعمل المتكسر يطقطق تحت أقدام "نامي".

كان "نامي" يحب حصص المعمل وهو في المدرسة. كان يمسك بأنابيب القياس والاختبار، ويتخيل أنه يقوم بنفس العمل الذي يقوم به الخبراء الأذكياء الذين لا يسكنون مدينة "بوروس" بالتأكيد، بل العاصمة.يعملون فيها وهم يرتدون معاطف بيضاء. أياديهم نظيفة ومعقمة. يتفحص "نامي" الأدراج والملفات فلا يجد شيئًا ذا قيمة. على الحائط ملصق ممزق جوانبه مطوية. إنه يعرفه جيدًا. فيه صورة الزعيم، وقواعده الثمانية حول الإنسان الجديد. يرى "نامي" أن هذا أخطر ما في المعمل كله. يسحب درجًا معدنيًا، ويضرب به صورة الزعيم وهو يصرخ: "قذرا!". يعجبه صوته، فيكرر السباب، لكن بصورة أكثر هدوءً، مع بعض الوداعة، مثلما كان يلقي قصيدة في المدرسة عن الزعيم الطيب. الزعيم ينظر بحزن ويكاد يبكي.

لم يعثر "نامي" على أية ملابس في غرفة الملابس. لم يعثر سوى على ثوب واحد أبيض وطويل في أحد الأدراج. ظن "نامي" أنه معطف خاص بالمعمل، لكن عندما نظر إليه من قريب وجد أنه فستان نسويّ

مصنوع من قماش صناعي خفيف. كشكشة على التنورة وأطراف مزينة بخيوط ذهبية. بهت الفستان كله تحت التراب، لكن لا شك في أنه فستان زواج. كانت فتيات "بوروس" تتزوجن في واحد مثله. وكن يلبسن فوق رؤوسهن قبعة مدببة ومطرزة وذات غُرف. من ذا الذي فكر في زواج حقيقي فوق هذه الجزيرة التي ملأها اليأس، وحاكَ من أجله هذا الفستان؟ يتكئ "نامي" بجبينه فوق باب صندوق الملابس المفتوح، وهو يلامس الأهداب فوق أكمامه. الخيوط الصناعية تمر بين أصابعه على نحو مزعج. لكنه لا يأبه للأمر. فهو يشعر أسفل الأهداب بيد عروسه. إنها ناعمة ملساء، تنتفض في ترقب.يحاول "نامي" استدعاء وجه هذه الفتاة لكنه يفشل. لا وجه لها. لا يشعر "نامي" سوى برائحة خفيفة لكرات النفتالين المضادة للعثة، والتراب العالق في الهواء. لا يوجد ماء في أي من غرف المعمل. ينظر "نامي" إلى راحتيه المفتوحتين: إنهما ملوثتان وداميتان وتنتفضان. ينفر من رائحته الكريهة. يجد أمام المبنى طلمبة، وتيار خفيف من مياه بنية يتدفق منها بعد تجشؤ صدِئ. لم

يصدق "نامي" نفسه بعد يوم غبي مر به. ظل يضخ المياه كالمجنون، وهو يضحك. كان واثقًا من أن المياه ملوثة مثل مياه البحيرة. لكنها على الأقل تبدو نظيفة. يخلع "نامي" ملابسه بصعوبة، ويغتسل في مياه المضخة. ثم يستلقي عاريًا في الشمس. يشعر بعطش كبير. يستسلم للنوم.

****

يوقظه البرد بعد أن مالت الشمس للمغيب. يشعر بحكة في جلده، وجفاف شديد على لسانه. يسمع صوت نفير سفينة قصير ومتقطع. يقترب مركب صيد بهوادة من الميناء. مركب يشبه الذي جاء فوقه إلى هنا. نعم، وله نفس الاسم: فيارا. خلف دفة القيادة يقف "فاسكا" الذي حمله إلى هنا في الصباح. يحرك له يده يحيه دون اهتمام.

يجمع "نامي" أغراضه بسرعة، وينطلق نحو المرفأ. يلوح للبحار بهياج. فيجيبه دون أن يبتسم:

نعم، أنا أراك. لقد عدت من أجلكَ يا فتى.

حقّا؟ هل فعلًا عدت من أجلي؟

يسأله «نامي» وهو يرفع إحدى قدميه فوق سور المركب. فيضربه البحار بخفة على ظهره:

المهم ألا تحدث فوضى هنا، وارتد شيئًا نظيفًا.

يضحك «نامي» ضحكة قصيرة، من باب اللياقة. يبتعدان عن الجزيرة التي اكتست بلون شمس الغروب، ويشك في أن ما حدث لم يكن إلا حلمًا.

يقول البحار:

نصف هؤلاء الأغبياء من الشرطة، وقاضيان، ونائب عمدة المدينة. أما الباقون فهم حثالة مريضة لا تصلح حتى للخدمة في الجيش. لكن يا صديقي لا يوجد من تشكوهم إليه. الآن عليكَ أن تحترس منهم. اذهب إلى الكابينة، ستجد في الخزانة ملابس ترتديها.

يجد «نامي» بلوزة صيادين، ورداء شمعيا. رائحة النفط تفوح منهما، فيشعر «نامي» بالهدوء. إنها رائحة

نظيفة. يسقط السروال فوق خصره، فيربطه بحبل. ثم يجلس في المقدمة فوق كومة من شِباك الصيد، يتابع المركب وهي ترتطم بأمواج خفيفة. لا يرغب في أن يفكر في أحواله. الشيء الوحيد الواضح له هو هذا البحّار. إنه أحد أشكال جنيّة البحيرة التي أنقذته والذي يتكئ الآن على دفة القيادة، ويترك المحرك يعمل بنصف طاقته، فيسعل في وهن. يراوغ بالمركب بكل مهارة. عليه الآن أن يتحرك ببطء وبحذر كي لا تتعلق بالمركب طحالب البحر التي تنتشر في أرجاء البحيرة.

احترس من الجهة اليمنى!

يصيح «نامي»، فيومئ البحار ليخبره أنه يراها. يبحر بجوار جيفة الخراف: تلون جلدها بلون الطين، وأقدامها منتصبة إلى أعلى. تبدو الخراف وكأنها تبتسم. أعينها جاحظة. يسعل «فاسكا» بشدة، سعلة رجل يدخن التبغ سنوات طويلة.

لو كان لهذه الخراف يومًا فائدة ما، فلن تكون أكثر من تلويث البحيرة كلها.

يبصق، ثم يدفع مزيدًا من الغاز إلى المحرك. فيقفز المركب «فيرا» وكأنه يترقب هذه اللحظة طوال الوقت.

ألا تعرف أين أنزلكَ؟

يهز «نامي» رأسه. فأجابه الرجل:

أنت محظوظ أيها الفتى! سآخذك إلى السيدة العجوز إذن. إنها في انتظارك! أرسلت لها رسالة عبر أحد معارفي يعمل عندها في الصيانة. لقد حكى لها كل شيء عنكَ، وكيف أنكَ طرحت ذلك الحقير في الوحل، وكيف أنك رحت تراوغه وأنت تهرب. السيدة العجوز تريد أن تتعرف عليكَ.

بعد لحظة سأله «نامي»:

ومن هي السيدة العجوز.

حرك «فاسكا» رأسه، ثم بصق.

****

كانت السيدة العجوز يومًا من الوجهاء. تسكن واحدة من فيلات المدينة الراقية التي تقع خلف سور مكسو بالكامل بنبات اللبلاب، ولوحات في مداخلها الباهتة تحمل اسم أصحابها. وحدائق بها أشجار التفاح البرية، واللوز، والرمان، والتين، وسيقان زهور البنفسج الجافة. تقف هذه الفيلات اليوم ملاصقة لعمارة بسيطة، ومخرج المدينة، ومركز تجاري تصدعت واجهته. تُذكّر بأوقات الثراء التي خلت. حيث تكاثر بارونات البترول، كان يكفي أن يحفر أحدهم صدفة في الأرض، فيخرج منها بترول، ويتصاعد لسان على ارتفاع خمسة أمتار. تمر بضعة أيام قبل أن يحكموا سيطرتهم عليه. كان والد السيدة العجوز أحد هؤلاء البارونات. الأخ الأصغر لثلاث بنات تلقوا تعليمهم على يد مربية انجليزية، ودرسوا في باريس. كانوا زهوة كل حدث اجتماعي يحدث في المدينة، وحلم كل شاب أراد أن يكون ذا مكانة.

وجه السيدة العجوز اليوم غارق في التجاعيد العميقة. صوتها صار ضعيفًا، ووصل إلى طبقة التينور، على عكس صوت غالبية السيدات الذي تتحول أصواتهن إلى الطبقة الأعلى الكريهة مع تقدمهن في العمر: شعر "نامي" وهو يستمع إليها وكأنه يسبح في بحر عميق. نتأت عظامها فوق أصابعها الطويلة التي تزينها خواتم ذهبية ذات أحجار كبيرة. مصففة الشعر تقوم على الاهتمام بشعرها، وتزورها كل أسبوع في البيت. تعزف السيدة العجوز كل يوم، ما عدا الأحد، تعزف على البيانو بعد أن تتناول الفطور ولمدة نصف ساعة. ثم تشرع في كتابة الرسائل. تزور المقابر أيام الأحد. هناك تزور والديها، وشقيقتيها الأكبر منها. لا تثق في أحد رغم أنها طاعنة في السن. رافقت خطيبها وهو ذاهب إلى الحرب. وظل يرسل لها الرسائل لبعض الوقت، ثم توقف. حزنت وامتد حزنها. وبعدما وعدت حبيبها الذي لقي حتفه بأنها لن تتزوج بعده أبدًا وجدت أن حزنها يتراجع كثيرًا. دخلت بعدها في علاقات عاطفية مع رجال كُثْر ذوي حظوة، يقال إن من بينهم الزعيم

شخصيًا، وهو الذي أقام في المدينة في بداية عمله لعدة سنوات.

كان نبلاء المدينة يترددون على صالونها. كل من كان له شأن في المدينة اتكأ في بيتها على ورق الحائط بنقوشه الخضراء الداكنة. ونفض رماد سجائره التركية الثقيلة في طفاياتها البرونزية التي تقف على أقدام أسد، وهو يندب حظه. كانت السيدة العجوز تنتبه لهم، وإما أنها تومئ لهم برأسها لتسايرهم، أو تسدي إليهم بالنصائح بأن يكفوا عن النشيج وأن يتماسكوا. في هذا البيت - وفي غيره من البيوت الأخرى – كانت تنعقد إدارة المدينة غير الرسمية. فهنا كانت تصاغ أقدار البشر، وتوضع الحلول الجماعية للمواقف المتأزمة. هنا أيضًا ظهرت مؤسسة غير رسمية للفتيات المأزومات، والأيتام.

في أحد هذه الصالونات يقف الآن "نامي" المرهق بقذارته. يرتدي زيّا مربوطًا بحبل حول خصره. هذا المساء أحضره إلى العاصمة أحد قوارب الصيد. كل الحاضرين يرتدون ملابس سوداء. سحابة من الدخان

الأبيض تتطاير في سماء الغرفة، وصوت موسيقى التانجو يصدر من مشغل الأسطوانات. وامرأة بصوت متهالك تغني، وتصف قلبها الذي ينزف دمًا كل ليلة، كلما عاد حبيبها إلى زوجته. يختلط هذا العويل بصوت الكمنجة والبيانو. يرافق الصوت قفزات في الأسطوانة المخدوشة، التي يسمعها "نامي" لأول مرة في حياته.

بمجرد أن تقع عينا "نامي" عليها يعرف أنها سيدة الحفل: نظرتها وديعة ونافذة. قامتها معتدلة، وحركاتها منطلقة وواثقة، رغم ما يبدو عليها من آثار التهاب في المفاصل. أنفها بارز، وجفونها متهدلة. ترتدي فستانًا أسود مزركشًا، وعلى صدرها بروش من اللؤلؤ.

تقول وهي تلاطف وجهه:

تعال أيها الغالي!

يدها جافة ودافئة. ملمسها خشن. إنها تذكره بيد جدته، يدفع وجهه تجاه يدها مثل القطة. تترك كفها

فوق وجهه، فيضغط «نامي» على ما بين كتفها وذقنها. تبتسم السيدة العجوز باندهاش، وتبقى معه للحظات في حالة من التواصل التآمري قبل أن تسحب يدها. يشم رائحة التبغ.

يقول «نامي»:

موسيقى جميلة!

فتنطلق من جوفها ضحكة مختلطة بالسعال:

أنت محق! إنها عاطفية، مفرطة في العاطفية لكنها لطيفة.

يصمت «نامي» ولا يعرف بما يجيبها. إنه لا يعرف معنى التعاطف ولا الإفراط فيه.

هل أنتَ جوعان؟

يهز «نامي» رأسه. تومئ السيدة العجوز لامرأة ترتدي فستانًا مزركشًا، فتميل المرأة عليها.

حليب ساخن لهذا الشاب يا «فيركا»! وضعي فيه كأسًا صغيرًا من الكونياك الجورجيني، وسخني له «كونسوميه».

ترمقها «فيركا» بنظرة لا تخلو من عتاب، لكنها تحضر كأس الحليب الساخن الذي يلعب برأسه. يكتشف أن ال«كونسوميه» ما هو إلا حساء عادي، تعوم فيه كرات خبز صغيرة مصنوعة من الدقيق والكبدة، وحبات جزر دقيقة. طعمه رائع. فيطلب منها «نامي» أن تعطيه المزيد.

أنتَ شجاع. وتستحق ميدالية، لكن هذه الأيام الغريبة تكافي الجبناء، لا الشجعان. لكن يجب أن تعرف أنه مازال هناك من يقدر الشجاعة. ألستُ على حق يا صديقي؟

نصف دستة من الحاضرين في الصالون تضحك. وسيدة تضع فروًا حول رقبتها تبدأ في التصفيق الحاد. وتنبهها السيدة العجوز بأن تكف عن الشراب.

يصيح رجل قصير وبدين:

في صحتكَ يا صديقي!

إنه طبيب أمراض نساء، ولدت على يديه ربع سيدات العاصمة. هذا ما سيعرفه «نامي» لاحقًا، فيرفع الكأس.

يسعل «نامي» في تردد، ثم يجيب بصوت منخفض:

أخشى أن يكون قد حدث سوء فهم.

ثم يضيف وهو لا يدري إن كانت الكلمات تخرج فعلًا منه، لكنه يظن أنهم يسمعونه:

كان مجرد شجار غبي في الوحل. لا بطولة فيه.

تصرخ السيدة بهستيرية:

الثورة تشتعل من مستصغر الشرر.

ترد السيدة العجوز:

من فضلكم، ليحضر لها أحدكم فنجان قهوة. يا «مارتا»! كفي عن الشراب وإلا طردتكِ من هنا!

تترنح المرأة الهستيرية. ويجيب «نامي» بفزع:

ثورة؟

تهز السيدة العجوز يدها:

لا عليكَ! ليس هناك ثورات. «مارتا» هكذا تهذي، يمكنكَ أن تبقى هنا الليلة بعد أن تستحم، ثم نرى ماذا سنفعل.

يظهر الامتعاض على وجه «فيركا»، لكنها تومئ ل «نامي»، فيتبعها صعودًا فوق الدرج وهو في قمة التوتر. رأسه يتمايل. يرى مؤخرة «فيركا» أمامه وكأنها بقعة ضخمة تغطي العالم بأكمله. ترافقه حتى حمام ذي بلاط وردي، وخلاطات نحاسية، وحوض استحمام يقف على أرجل برونزية. الماء يتسرب من غالبية الصنابير، وعلى بعضها طبقة من الكلس والصدأ. تفوح في الحمام رائحة النعناع، وزهور بداية الصيف

التي لم يعد يشتمها «نامي» منذ سنوات. تملأ له «فيركا» حوض الاغتسال حتى نصفه، وتضع فيه كمية مناسبة من الرغوة. يغرق «نامي» فيه جسده بسعادة، ويظل مستلقيًا بلا حراك، فتصير المياه باردة شيئًا فشيئًا، ثم يغلبه النوم.

****

في الصباح تأتي إليه السيدة العجوز بنفسها، تحمل له كوبًا من حليب اللوز. تجلس بجواره على السرير، تتابعه بابتسامة وهو يشرب الحليب. تضع كفها الدافئة على يده، فيغلق «نامي» عينيه. تتسلل الشمس إلى سريره، فيتملكه وهم الأمن والهناء.

تخرج بعدها السيدة العجوز إلى الصالون، وهناك تعزف على البيانو.

****

يقضي «نامي» اليومين التاليين مستلقيا في الفراش، لا يتحرك، ولا يأكل. وينام على نحو سيئ. يفكر في

أول مرة زار فيها الحلاق. ومتى سدد أول هدف كرة قدم في حياته، وقت أن ارتطم ضلعه بالمرمي من السعادة، وأول مرة غطس في الماء، وتعلم فيها السباحة. وأول مرة قاد فيها جرارًا زراعيّا. وأول مرة قاد فيها مركب جده. يفكر في أمور تافهة، في الاحتفال بيوم السلام، والقادة الروس يرتدون الأزياء الباهتة. في الأسماك الذهبية وهي تتراقص في الشّبكَة. يفكر في كل ما حدث قبل أن يغرق جده، وقبل أن تأخذ جنيّة البحيرة جدته. في «ظاظا» وفي المتخلف الروسي، وفي ذراع «نيكيتيتش»، والسيدة العجوز. يبكي بكاء جافًا، بلا دموع.

في اليوم الثالث تأتيه السيدة العجوز وقد ارتسمت على وجهها علامات الجدية. تقول:

كفاك نشيجًا! انهض! أريدك أن تقوم بعمل ما في الحديقة.

«نامي» لا يرد. إن فكرة العمل في الحديقة أو أي عمل قد يقوم به لا تهمه. بل هو أمر لا طائل منه، وتافه.

ينظر إلى السيدة العجوز بكل بلادة، ثم يجيبها:

لا فائدة من هذا. لا أرغب في هذا العمل.

لا ترغب؟ ما قولك لو جاء الحراس، وأرادوا أن يلقوا بكَ في السجن؟ ستبقى نائمًا هنا مثل الجيفة، تبكي؟

أي حرّاس؟

أي حرّاس؟! الحراس الذين عليكَ أن تحسب لهم ألف حساب في كل وقت. لأن أي شخص يائس لم يأكل أي شيء منذ أسبوع مستعد لأن يفعل أي شيء. تلتقي بأمثاله فجأة في مطبخ بيتك. بخائن لأصدقائه يقوم بالإبلاغ عنك بتهم ملفقة، بأنك تعمل ضد الدولة. عليكَ أن تكون مستعدًا للهرب أو المواجهة. وهذا لن يحدث وأنتَ في السرير. أليس كذلك؟

كرر «نامي» السؤال:

أيّ حراس؟

رفعت صوتها، وقالت:

حسنًا. ربما سمعت بأني كنت عشيقة الزعيم. أليس كذلك؟ حدث هذا قبل أن يكون زعيمًا. كان وقتها طموحًا، ووسيمًا، مليئًا بحماس الشباب. كنت في مقتبل العمر وقتها. جذبني اهتمامه بي. نعم، أحببته كما أحبه كثير من الناس قبلي.

صمتت، وشاحت بناظريها صوب الحديقة عبر النافذة. ثم خبطت يدها في الهواء.

أنتَ أيضًا بالتأكيد أحببته. أعطني هذا الكتاب ذا الجذع الأحمر. هناك – فوق هذا الرف. نعم، هذه الحكايات الشعبية.

«نامي» يعطيها الكتاب، ثم يندس تحت الغطاء من جديد. السيدة العجوز تضع الكتاب في حجرها للحظات، ثم تمرر يدها النحيلة فوق غطاءه الجلدي الأحمر الداكن، وتفتحه. تزيل من فوقه بعض التراب الذي يتطاير فوق السرير. تقلب صفحات الكتاب،

وتتوقف عند صفحة بها حكاية «الفرقة الذهبية». تقلب الصفحة، فتجد صورة بالأبيض والأسود بجوار رسم تصويري متعدد الألوان لفرسان فوق أحصنتهم، يرتدون معاطف حيكت بالذهب، وقبعات مدببة. راحت السيدة العجوز تنظر إلى الصورة، ثم ناولتها ل «نامي». في الصورة رجل طويل، ذو شعر لامع، ناعم مصفف إلى الخلف. يرتدي ربطة عنق رفيعة، وفي عينيه نظرة صبي متردد. بجواره تقف فتاة تلبس حذاءً لامعًا، وتنورة مطوية تصل ركبتيها. تتكئ عليه، ذقنها إلى الأمام، وترسم على وجهها ابتسامة أمام الكاميرا، وتضع إحدى يديها في خصرها. شعرها الأسود مشوش قليلًا، يبدو أنها وقت التصوير حركت رأسها، أو أن رياحا هبت. بينما صاحبها يقف بكل هدوء. خلف الصورة أشجار سامقة، وطريق ترابي، يمشي فوقه حمار.

يقول «نامي» من باب اللياقة وهو يعيد الصورة إليها:

جميلة!

أشكرك! لكنها غير مرغوب فيها!

تبتسم السيدة العجوز، وتضيف:

ذات مساء كنا نخطط للسفر إلى باريس، وفي اليوم الثاني فتحت بابي عنوة مجموعة من أنصاف المتعلمين لكي يأخذوا مني كل الصور والرسائل. لكني كنت قد خبأت هذه الصورة جيدًا. وفي اليوم الثالث كان عليّ أن أختبئ أيضًا. اختبأت في البداية أسفل السرير، ثم عند معارفي. لأن وجودي في حياة الزعيم كان وصمة عار كبيرة له. نعم. أرادوا لي أن أختفي من العالم. ما الذي يدهشك في هذا؟

جلس «نامي» فوق السرير. وأسند ظهره على مقدمته، وهو يقبض على طرف الغطاء. لم يندهش. لم يكن منتبهًا للسيدة العجوز كثيرًا. كان يتابع شمس الصباح خلف الستارة الخشبية وهي تلقي على الحائط ظلًا يتحرك أمام عينيه.

هل تعتقد أني لو استسلمت للاكتئاب وقتها كنت سأنجو بنفسي؟

يهز «نامي» كتفيه دون اكتراث.

انضم إلى اللجنة المركزية. وهناك اندفع كالصاروخ في مسيرته العملية. تزوج من امرأة شمطاء قبيحة من أعضاء اللجنة المركزية التي كانت ذات سيرة وظيفية ناجحة، وبقي طيلة حياته يمارس الرذيلة مع راقصات الباليه والمغنيات، وراقصات الجليد. أتظن أن هذا لم يدمرني؟ وأني بلا مشاعر كأن صدري قد امتلأ بتراب الصحراء؟ أو كأنهم هكذا قد دفنوني وأنا على قيد الحياة؟ لم أسمع منه بعدها كلمة واحدة. على الأقل توقف عن مطاردتي، ثم مات. فصرت الآن أنعم بالهدوء.

سعلت السيدة العجوز بصوت أجش، ثم توقفت عن الكلام. أعادت الصورة إلى كتاب الحكايات، ووضعته على الرف مرة أخرى. مسدت تنورتها بأناقة، وغادرت الحجرة. ثم استدارت وهي عند الباب، وقالت:

«نامي»، ارفع مؤخرتكَ من فوق هذا السرير، وارتد ملابسك، وكُلْ، وابدأ العمل! بعدها يمكن أن نتكلم في أمر أمك!

****

"نامي" يعمل في حديقة السيدة العجوز كي لا تبدو كما كانت من قبل؛ يقتلع الشجيرات التالفة، ويزيل العشب الضار، ثم يضع السماد وينثر البذور التي ستصبح زهورًا وأعشابًا وقت الربيع. يهذب أيضًا الأشجار. لم يكن ري الحديقة سهلًا. فالمياه لا تأتي إلى هذا الحي إلا في الصباح والمساء، وممنوع استخدامها في ري الحديقة.

يتردد على الصالون في المساء مثقفو المدينة، ومعارضو النظام، ومغنيات مسرح من القرن الفائت. يتحدثون في بؤس عن السياسة، والأوضاع الاجتماعية المتردية. غالبًا ما يداهم "نامي" النعاس وهو فوق المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه. فتتركه السيدة العجوز. في صباح كل يوم تحمل له حليب

اللوز، أو عصير الليمون بالعسل، وتسأله إن كان نام جيدًا. سوت حاجبيها فصارا ناعمين وثقيلين مثل حاجبي امرأة شابة. تذهب إلى حجرة الصالون لتعزف على البيانو، و"نامي" يستمع إليها. وكأن الزمن قد توقف في هذه الحجرة. الهواء يحمل التراب في هدوء، ويضعه فوق الأثاث الموبر، والأغطية المزركشة. الخزائن تفوح برائحة النفتالين، وخشب الصندل.

****

ينهض "نامي" في الصباح. يتناول الإفطار (غالبًا ما يكون جائعا جدًا. يحلم بما سيجده في البيت. كيلو خوخ في سلة بحجرة المؤن، رغيف خبز أبيض، قطعة جبن في وعاء به ماء أسفل السلم، وطبق كسكس بعصارة الكرز). ثم يذهب بعدها إلى الحديقة. يهذب الأشجار، ويسقي الورود. يتصبب منه العرق، وتعلق به القذارة. يصاب عدة مرات بجروح، وتصبح مفاصل إصبعه مكدومة. رغم ذلك يرى أن هذا العمل يعجبه. يظل يعمل حتى يسقط من الإعياء. يرى السيدة العجوز وهو عائد إلى البيت، ترتدي قفازات بيضاء،

ووشاحا طويلا، تنصرف إلى المسرح. فيتجنب كل منهما الحديث بشأن أمه.

يقول "نامي":

لقد أنقذت اليوم وردة من وسط الأعشاب الضارة. لم أكن أراها، وكدت ألقي بها مع الأعشاب.

تجيبه السيدة العجوز وهو يراها، لأول مرة منذ أن جاء إلى هنا، وقد خرجت عن هدوئها:

صحيح؟ بجوار العريش؟

يهز «نامي» رأسه.

أخبرني عندما تزدهر! الآن يجب أن أنصرف.

مرت عدة أيام ولم يأت ذكر أمه على لسان أحدهما. «نامي» يعمل بجد في الحديقة، والسيدة العجوز ترتب خزانة ملابسها بذهن شارد. «فيركا» تسعى مرتبكة بين السيدة العجوز و«نامي» ومعاطف المنك،

والمعاطف الصوفية في فناء البيت، وتشكو من أنه لا أحد يتحدث معها.

«نامي» لا يسأل عن شيء. فقرار البحث عن أمه شيء، ورؤية الحقيقة شاخصة خلف أقرب ستارة شيء آخر. شيء يصيبه بالفزع. «نامي» يتحرك كإنسان آلي. يحصي الأشياء أثناء العمل بصوت منخفض، أو يردد أشعارًا وطنية تعلمها في المدرسة. يعود إلى البيت في حالة بائسة. فيعرف الجميع أنه ليس في حالة تؤهله للحديث. بعد حمام قصير يسقط في الفراش مغشيًا عليه. تتظاهر السيدة العجوز وكأنها لم تنطق أمامه كلمة «أمكَ» على الإطلاق. لكن يبدو أنها كانت تجمع المعلومات حولها.

فقد «نامي» شعوره بالزمن. في أي عام يكون، وكم من الوقت يقيم في العاصمة. لكنه يعتدل في الفراش عندما تأتي السيدة العجوز إليه ذات صباح وهي ترتدي فستانًا قطنيًا أزرق، وتجلس فوق سريره وهي تحمل كوب حليب ساخن. عندها يعرف أنها بداية شهر سبتمبر، وأن ذكرى ميلاده ستحل بعد شهر.

بالطبع أعرف من هي أمك!

تقول السيدة العجوز فجأة وكأنها تواصل حوارًا قد بدأ من قبل. «نامي» ينظر إليها في صمت. تنتابه رغبة في أن يسحب الغطاء فوق رأسه. الظلال فوق الحائط تدخل من خلال ستارة خشبية صارت باهتة أكثر، وتتحرك بسرعة.

أنت في السابعة عشرة. أليس كذلك؟

يهز «نامي» كتفه، ويجيب:

تقريبًا.

لكن لا توجد فتيات كثيرات جئن إلى العاصمة منذ سبعة عشر عامًا من مدينة "بوروس" وهن حوامل، وخائفات إلى درجة أن فقدن النطق.

«نامي» يمد يده على كوب الحليب، ويسكبه في جوفه دون أن يتحدث.

أمك اسمها «ماريا أننا».

تصمت السيدة العجوز لترى رد فعل «نامي» الذي تتظاهر وكأنه لم يسمعها.

جاءت إلى هنا يومًا ما في قطار ليلي. بعد أن اغتصبها أحد الأغبياء القرويين.

«نامي» لا يتحدث، وينظر في صمت إلى قاع كوب الحليب الفارغ.

كان أحمق. رأى فتاة جميلة، فثارت حواسه، وببساطة... ضاجعها. وعندما ذاع الخبر في «بوروس» انتهى هذا الشاب نهاية سيئة. ما رأيك؟ جنية البحيرة؟ يقال إنها هي من تولى أمره.

«نامي» يجلس صامتًا.

عندما جاءت «ماريا أننا» إلى هنا، كانت في حالة صدمة، ولم تتحدث مع أحد. اهتمت بها أسرة الطبيب الذي يزورني، وأقامت عندهم كي يساعدونها. بعد

بضعة أسابيع تأكدوا من أنها حامل. أخذت أسرة الطبيب الطفل -الذي هو أنت-، وأعادته إلى جده وجدته في «بوروس».

يجلس «نامي»، والفتور على وجهه. ثم يهز رأسه بعد لحظات.

اسمع! لم يكن الأمر بهذا السوء. مئات الحالات المشابهة كانت تحدث. وكثير من هؤلاء الأطفال حديثي الولادة انتهوا في قاع البحيرة. أما أنتَ فكنت أوفر حظًا.

قال «نامي»:

لماذا أمي أنا بالذات؟ بالتأكيد أمي لم تكن لتسمح بأن يغتصبها قروي غبي.

تصمت السيدة العجوز.

كما أنني لم أسمع بهذا الحكاية في «بوروس».

ثم يرفع صوته:

لم أسمع يومًا بمثل هذه الحكاية الغبية.

تبرق في ذاكرته صورة المستطيلات الثلاث الحُمر. فيتضح الأمر.

كما أن أمي لم تفقد القدرة على الكلام. أتذكر أنها كانت تناديني بكلمة يا عصفوري، وتغني لي. أمي كانت تتكلم!

"نامي"

ماذا؟

كم واحد في "بوروس" له نفس اسمكَ؟

يجيب في هدوء:

لا أعرف. ربما لا أحد.

تضع السيدة العجوز يدها على كتفه، وتقول:

بالفعل! واسم الوليد الذي وضعته أمك كان اسمه «نامي».

يضع «نامي» راحتيه على عينيه، ويضغط عليها بقوة لعدة دقائق.

أين هي؟ هذه المرأة؟ أين هي الآن؟

****

يدور «نامي» حول البازار، وسوق العمل غير الرسمي، ويتوجه نحو ميمون. القرد جالس في قفصه، في أبعد ركن فيه حيث لا يراه أحد. يأخذ حبة البندق من «نامي» في تهاون، ثم يعود إلى الركن من جديد، حيث يبقى طويلا يقشرها. قضيب ميمون قرمزي اللون، ومجروح.

يمر وهو عائد إلى البيت بالميناء وببيت «جوني». يراه، على عكس ما توقع أن يرى أشلاء إنسان على وشك الانهيار النهائي، وهو يرتدي سترة سوداء بياقة عالية، ونظارة شمسية، وتبدو عليه الحيوية والشباب.

يخطو خفيفًا مثل قطة برية، وشعره يتطاير في الهواء. تتسارع دقات قلب «نامي». ويتأكد من أن الأمر لم ينتهي بعد.

## حوراء

"كوتسا"، قرية وسط الصحراء، تصل الحافلة إليها من العاصمة عبر طرق ترابية، وتستغرق الرحلة إليها إحدى عشر ساعة. تمر ترعة ري أراضي القطن بمحاذاة القرية. حفروها منذ سنوات كفرع من نهر "ديرا"، الذي يصب في البحيرة. ينظر "نامي" إليها فيرى أرضًا مزروعة بالقطن على امتداد بصره: قطن، قطن، قطن. يغادر الحافلة بعد رحلة طويلة، قضاها على كرسي بجوار امرأة تضع وشاحًا على رأسها، وتحمل طفلًا مريضًا في حجرها. كان في غاية الإرهاق، ومغطى بالتراب.

القرية خالية من السكان. متجر الطعام في ميدان القرية مغلق، وكذلك كشك المشروبات. يتجول "نامي" في القرية التي خلت من سكانها، ينظر من النوافذ، ويطرق على الأبواب، ويمسك بمقابضها. بعد عشر دقائق يكون قد جاب القرية كلها، ثم يعود أدراجه إلى موقف الحافلة. يجلس السائق الذي أحضره إلى هنا

متمددًا على سلم الحافلة. يفرج ساقيه عن آخرهما، ويدخن سيجارة بنية برائحة كريهة.

يقول السائق موجهًا حديثه إلى "نامي" قبل أن يبصق في التراب لعابًا بُنيّا:

إنه موسم حصاد القطن، أيها الرجل. وكل سكان القرية في الحقول.

كلهم؟ كلهم بلا استثناء؟

نعم، بلا استثناء. فلا عذر لأحد منهم. قد يكون عمرك تسعين عامًا، وبساق واحدة، وعين واحدة، لكن ما أن يحين موسم حصاد القطن فعليكَ أن تذهب إلى الحقل، وتعمل مع الباقين. الأمهات بأولادهن، وحتى عمدة القرية. في المساء سيعودون جميعًا. انتظر!

«كوتسا» قرية ككل القرى. بها ثلاثون بيتًا قصيرًا، ذات أسقف معدنية متعرجة. تصطف البيوت بانتظام حول الميدان الرئيسي على شكل مستطيل. في وسط الميدان شجرة توت شبه جافة، وبجوارها تمثال

نصفي للزعيم، مصنوع من البرونز، ويقف فوق قاعدة خرسانية. يبدو أن الأموال لا تكفي لعمل تمثال بالحجم الطبيعي في قرية صغيرة كهذه. فكان من الضروري الاقتصاد في بنائه. وأسفل التمثال نصف دستة دجاج تنفض عن نفسها التراب. في نهاية القرية مبنى إداري، به مجموعة من الهياكل المعدنية لتجفيف القطن وحَلْجه. تقف أمام المبنى شاحنة بالية، وقطيع من الأغنام لا يعلم أحد ما يأكله ليبق على قيد الحياة. لا توجد إنارة عامة في القرية، لكن بها أعمدة فوقها كابلات التلفونات.

الهواء رائق وكأنه خالٍ منكل شيء. تتطاير فيه ذرات رمل أسود فوق الأرض قادم من الصحراء، وفي السماء لون أزرق يبهر العيون. الأصوات في الحر القائظ تختفي بلا أثر كما يختفي صوت «نامي» وهو يصرخ في الوسادة.

يسكب سائق الحافلة زجاجة ماء فوق رأسه، ثم يحمل وسادة، ويذهب ليأخذ قيلولة تحت الشجرة الوحيدة في الميدان. يترك باب الحافلة الأمامي مفتوحًا. فمن

هنا سيسرقه؟ يسمع «نامي» بعد لحظات صوته وهو يغط في النوم.

يمشي «نامي» فوق طريق ترابي خارج القرية، يقوده إلى ترعة ريّ. يعرفها من بعيد، تحيطها نباتات خضراء شائكة. الصحراء على يسار الترعة جرداء، ولا يرى فيها إلا بضعة أشجار جافة على مدى بصره. وعلى اليمين أرض يغطيها زغب نوّار القطن الأبيض في مكان تقع عليه عيناه. الترعة المتفرعة من نهر «ديري» تؤمن موسمين من القطن سنويّا. معجزة، أو هكذا تصفها اللوحات الإعلانية المنتشرة في كل مكان. المياه راكدة لا تتحرك في مجرى مائي اسمنتي عرضه ثلاثة أمتار. مياه عكرة، وليست باردة، رغم ذلك تشعرك بالانتعاش. يضع «نامي» حقيبة يده جانبًا، ويطوي سرواله، ثم يدلف إلى مجرى الماء. يجده أعمق مما توقع، فيبلل سرواله فيه. يشعر بالسعادة من مياه الترعة، ويجد نفسه يبتسم رغم مياهها العكرة، ورائحتها الكريهة بعض الشيء. يمشي في الترعة لما يقرب من مائة مترًا. قاعها زلِق بسبب الطحالب،

وطبقة الطين الرقيقة. أحيانًا يدوس «نامي» شيئًا حادًا.

يجلس بجوار الترعة وسط حشائش جفت، ويأكل آخر ثلاث بيضات سلقتها له «فيركا». يتمدد، ويستنشق التراب. تبهر الشمس عينيه فيغمضها. يستيقظ بعد بضعة ساعات، فيجد وجهه وقد لفحته الشمس، ورأسه تؤلمه. يغطي عينيه. تتجه الشمس نحو الغروب، وتقترب سحابة ترابية على الطريق قادمة من ناحية الغرب، وتتخذ لونًا قرمزيًا. ها هم حاصدو القطن يعودون إلى بيوتهم. يرتجف «نامي».

****

الرجال في شاحنة، والنساء وأطفالهن في الشاحنة الثانية. وفي الثالثة والرابعة أجولة القطن. يغادرون الشاحنات، يحرر أصغرهم، وأقلهم تعبًا الحاجز الخلفي للشاحنة، فيقفز الأوائل من الشاحنة. أحدهم يدفع صندوقًا خشبيًا أسفل هيكل الشاحنة بديلًا عن السلم، ثم يساعد الآخرين في النزول. لا يتكلم كثيرًا، فالتراب

يغطيهم، ويبدو عليهم الإرهاق. بينهم أطفال في أعمار مختلفة. منهم أطفال تحملهم أمهاتهم مربوطين على ظهورهن. بينهم العجائز من الرجال والنساء. الغريب أن عدد الرجال في سن الشباب قليل.

«نامي» يتابع النساء وهن يقفزن من صندوق الشاحنة، ويتفحص وجوههن، ويبحث عن أوصاف امرأة رآها لآخر مرة منذ أربعة عشر عامًا. وبشيء من الكراهية يتابع الأطفال الذين ربما يكون بينهم من هم أخوة له غير أشقاء. وفي النهاية يتعرف عليها. من صوتها وهي تغني. المرأة تدندن وفمها مغلق، تساعد النساء العجائز في مغادرة الشاحنة. وطفل يدفعها. يشعر «نامي» بجسده يترنح. المرأة تلمحه. فجأة يشعر «نامي» بأن هذا الوجه مختلف تمامًا عن ذلك الذي يحفظه في ذاكرته. ذكريات متقلبة! أكثر ما أدهشه هو أن لون عيني المرأة أزرق. تبدو عليها آثار التقدم في السن. إنها أكبر كثيرًا من سنها الذي يعرفه. ظهرت بوادر شعر أشيب في رأسها. من الصعب التكهن إن كان بالفعل

شعرًا أشيب أم مجرد تراب. تشيح المرأة بوجهها عنه، وتمسك بصندوق الشاحنة.

يتفرق الأطفال في أرجاء القرية، وتتوجه النساء إلى بيوتهن. يذهب الرجال مباشرة نحو كشك المشروبات، ويطلبون أول كؤوس الخمر. الناس هنا يتحدثون بسرعة، وبصوت عال، وكأنهم يحملون في أنفسهم غضبًا دفينًا. يشعر «نامي» بضيق مما يراه. فقد تعوّد في «بوروس» على النطق اللين الهادئ الذي فيه طرب. نهض سائق الحافلة، وجلس متكأ بظهره على الشجرة. بعد لحظات سيتوجه عائدًا إلى المدينة. سيعود بمفرده، ربما يصعد إلى الحافلة أحد من القرى الأخرى. تنصرف المرأة. يلاحظ «نامي» أن خطواتها تشبه خطوات امرأة عجوز؛ مرفقاها مطويان قريبًا من جسدها، ظهرها محني، ورأسها مدلاة. لا يمكن أن تكون هي نفس تلك المرأة ذات المستطيلات الثلاث. يمشي خلفها على بعد عشرين مترًا، تجذبه دندنتها. رأسه يدق، يسمع من خلفه صوت محرك الحافلة يعلو. تلتفت المرأة نحوه بعدما وصلت إلى باب البيت

الوحيد الذي يحتفظ بلون أخضر ناصع. تومئ، وتقول له:

تعال! سأصنع لكَ شايا.

يلاحظ «نامي» وهي تتحدث أن فمها خلا من بضعة أسنان. يحبس أنفاسه، ويتابعها إلى دهليز مظلم. على أحد جوانبه حامل فوقه معطف، وتحته حذاء وحيد للمناسبات، وحذاء آخر برقبة طويلة، وعلى الجانب الآخر يوجد حامل من عدة أرفف، عليه بصل، وطماطم، وعيدان بقدونس، وبضعة حبات باذنجان. يخلع «نامي» حذاءه، ويدخل إلى الغرفة الوحيدة في البيت. تبدو له مظلمة، باردة على غير المتوقع. بسيطة مثل صومعة الكنيسة. الأرضية من الطين، والنافذة صغيرة مغلقة في مكان مرتفع من الحائط. فوق السرير القصير غطاء قطني، وبجواره طاولة صغيرة قصيرة ومستديرة، وكنبتان.على الحائط المقابل فتحة مدفأة لها غطاء من حديد الزهر، وفوق المدفأة في فتحة تتصل بمدخنة. على الحائط أيضًا لوحة للبحيرة وقت أن كانت بها مياه كثيرة، وفي محيطها نبتت

الأشجار. أسفل الصورة قائم من القضبان المتداخلة يحمل سجادة كليم غير مكتملة.

تميل المرأة على موقد صغير يعمل بالغاز، يشبه الذي رآه عند «جوني» في المعسكر، وتضع عليه إبريق الشاي. تتكئ على الحائط وتتابع الإبريق إلى أن يبدأ الماء في الغليانة. ثم تضع بضعة أوراق من الشاي، وحبات توابل، وملعقة سكر كبيرة.

ينتاب «نامي» شعور بالعبثية. لو أنه فكر، أين هو الآن، وماذا يفعل لأصيب بالدوخة. كلاهما صامتان. «نامي» يحدق فيها النظر، تبادله النظرات قليلًا ثم تشيح بوجهها عنه.

يقول لها:

لماذا تركتني؟

يظن أنه لم يقل شيئًا، وأن عليه أن يكرر الجملة. أحباله الصوتية يعلوها التراب، وصوته أجش.

تقول المرأة:

نامي!

وكأن الاسم نفسه أدهشها، وانفرجت عيناها من الدهشة، فراحت تكرر:

نامي! نامي!

يمسك «نامي» كوب الشاي الساخن ويضغط عليه بكفيه. ثم يقول بهدوء:

قولي هذا مرة أخرى! كرريه!

المرأة تعيد نطق الاسم. تكرره بلا توقف، على وجهها ملامح امرأة فقدت عقلها تقريبًا. تصيح باسمه، تكرره بعدد السنوات السبع عشرة التي مرت: نامي نامي نامي نامي نامي نامي، فصار لحنًا. يرى «نامي» أن الدمع يسيل على وجهها، ويصنع طرقًا وسط التراب.

أخيرًا!

يقول «نامي» ويهم واقفًا، فيعانقها. رأسه تتجاوز نصف رأسها ارتفاعًا. رائحتها كما عرفها من قبل. وكان قد اشتمها من قبل. تلف ذراعها حول جسده بطريقة خرقاء:

يا إلهي! لقد صرت كبيرًا. ياللكَ من رجل!

تضيف وهي لا تصدق ما تراه:

كيف صرت كبيرًا إلى هذا الحد؟

«نامي» يبتسم. ثم يضعها فوق الفراش بحرص، يميل عليها ممسكًا بيدها. إن له أمّا بالفعل. إن له أمّا حقيقية مثل أي إنسان آخر. ملأته هذه الحقيقة شعورًا مدهشًا:

كنت ترتدين مايوه أحمر، من قطعتين.

أما زلت تذكر؟

يضحك ويجيبها:

تقيأت فأمسكتني من رأسي. اليوم اختفى الشاطئ عند البحيرة بعد أن تقلصت.

تومئ له وتقول:

المياه كلها يشربها هذا القطن اللعين.

يصمتان لبرهة ثم يواصل:

جدي وجدتي ماتا. أخذتهما جنية البحيرة. والبيت يسكنه مدير الجمعية الزراعية. وأنا لم أكمل المدرسة.

ترشق فيه ناظريها، وتقول:

لكنكَ وجدتني يا عصفوري! كيف وصلت إليّ؟

****

بات جليّا أن «نامي» سيبقى مع المرأة. مازالت بالنسبة إليه امرأة، أو أحيانًا هي كذلك. يتردد في أن يناديها بكلمة أمي، رغم أنه يحاول أن يفعل في سره من وقت لآخر. تهرع المرأة إلى خارج البيت ثم تعود بعد

لحظات وهي تحمل فخدة خروف بالكسكس والنعناع. «نامي» يلتهم الطعام في هدوء، والدمع يترقرق في عينيه. إنه لم يأكل في حياته شيئًا بهذه الحلاوة. المرأة تتابعه بارتياح دون أن تتكلم. الدهن يتساقط على ذقنه. ويشعر بثقل في معدته. يظن أنه قد يقع في أي لحظة من فوق الكنبة. وبالفعل بدأ جسده يتحرك ويسقط بهدوء على أرضية الغرفة بعد أن فقد السيطرة عليه. تضع المرأة وسادة تحت رأسه، وتدفع الطاولة الصغيرة بعيدًا كي يرتاح على الأرض. ثم تجلس، تنظر إليه بملء عينيها طويلًا ويداها في حجرها.

تهمس له:

أنتَ كبير وقوي. كم أنتَ جميل!

تصير صورتها ضبابًا أمام عينيه، وتدور رأسه. الآن يمكنه أن يستسلم للنوم. لقد انتهى الأمر أخيرًا.

قضى ليلته يتقيأ فخدة الخروف.

****

تخرج المرأة من البيت وقت السّحَر. تترك له فوق الطاولة الصغيرة طبقًا من الفخار به زبادي بالعسل. لكن «نامي» لا يقوى على رفع يديه، ويظل طوال اليوم ممدًا على الأرض. تخترق عينيه أشعة الشمس من النافذة الضيقة. لا يقدر على أن يمنعها، أو حتى يغطي وجهه منها. يتصبب عرقًا، ويكاد مخه يسيل من فتحتي أنفه. إنها لسخرية القدر أن يلقى حتفه الآن بعد أن عثر على أمه. لكن لا حيله له في الأمر. قبل أن تعود المرأة من الحقل سيكون قد لقي حتفه بالتأكيد. عادت المرأة إلى البيت، وكان لا بد من أن تُهوّي المكان قبل كل شيء. تخيلت للحظة أن «نامي» بالفعل لا يتنفس، لكنه راح يفتح عينيه بحذر.

تقول والدمع يتدفق من مقلتيها:

يا عصفوري!

يضع «نامي» رأسه في حجرها، فتعطيه شايا بالنعناع، تسقيه له بالملعقة. تبرّد له جبينه، ثم تشرع بالغناء. ثم

يسلمهما الإرهاق للنوم. يتكرر نفس الشيء في الأيام التالية: «نامي» يسكنه الإرهاق، فيترك المرأة تقوم على رعايته. وهي تفعل دون كلمة واحدة. تظل تسقيه الشاي المحلي لساعات طويلة. تبدل الفراش المشبع بالعرق. في الصباح تنصرف إلى الحقل، وبعد الظهيرة تعود في لهفة. تعبر المدخل الذي حلت محل بابه خرزات ملونة. وتشرع على الفور في الاعتناء ب «نامي». تمر الأسابيع، وتتوالى الأيام. ويتراجع الحر الشديد الذي امتص كل قواه. يبدأ «نامي» في التعافي رويدًا رويدًا، بعدما تأكد من أن المرأة تعود بعد كل مرة تخرج فيها. يجلس فوق السرير، ويرد بكلمة واحدة. لكن قدميه لا تقويان على حمله بعد. أحيانًا يأتي لرؤيته بعض النساء العجائز في القرية، يحضرون معهم حساء الأغنام، أو أرزًا. يَقُلْن شيئًا عن الجذور القوية، وأشجار الحور الصلبة، لكنه لا يفهمهم. جاءه مرة عمدة القرية. رجل سمين، طيب القلب، تحت أنفه شارب كثيف، ولطخة لامعة على بطن قميصه، حيث يعقد يديه باستمرار. يهز رأسه، ويتحدث مع المرأة

بصوت خفيض. يديم النظر إلى صورة البحيرة فوق الحائط، ويهز رأسه من جديد، يزفر ثم ينصرف.

يسأل «نامي»:

ماذا قال؟

تجيبه المرأة:

لا شيء.

****

توقظه المرأة صباح أحد الأيام بصوت احتفالي، وتجثو بجواره، وهي تمسك بشيء مغلف في ورقة بنية اللون. تقول بصوت كله حماس:

عيد ميلا سعيد يا عصفوري!

نعم، إنها ذكرى ميلاد «نامي». إنه لا يتذكر آخر مرة احتفل به. يحرك «نامي» عينيه، ويفض غلاف الهدية.

يجد خلف الغلاف فيلًا مخمليّا أصفر. تهز المرأة كتفيها، وتبتسم معتذرة:

لا يوجد شيء آخر لأشتريه لكَ من متجر القرية.

يجيبها «نامي»:

أشكرك!

بعدما أعود من الحقل سأطهو لكَ كريم كراميل.

شكرًا يا أمي.

****

انتهي موسم حصاد القطن مع نهاية شهر أكتوبر، وأصبحت المرأة تقضي وقتًا أطول في البيت. تغزل الكليم، وتعزق حديقة صغيرة خلف البيت، وتذهب إلى مكتبة تعمل فيها. حجرة واحدة عتيقة، لا ضوء فيها تجاور محل البقالة. تفتح ثلاث مرات أسبوعيّا في الأيام التي لا يكون فيها حصاد. «نامي» هو الوحيد الذي يزور المكتبة، إضافة إلى المهندس الزراعي ذي

الوجه العريض الذي يتردد على المكتبة ليغازل أمه. «نامي» يقرأ بنهم شديد، يأخذ الكتاب واحدًا تلو الآخر، من اليسار إلى اليمين. لكن عدد الكتب في المكتبة ليس كبيرًا. فلا سوى الحكايات المحلية، والقصص البوليسية الروسية التافهة، والروايات الشيوعية. يجد أيضًا كتابًا حول زراعة القطن.

يجلس «نامي» في المكتبة فوق مقعد صلب، يلتهم كتابًا تلو الآخر، بينما أمه تدور وسط أرفف الكتب، وتزيل عنها التراب. أحيانًا تتوقف، وتلتفت نحو «نامي»، ثم تهز رأسه بخفة. «نامي» يتابعها من طرف عينيه. يبحث عن شيء يشتركان فيه. يديم النظر وهو يتمنى أن يرى نفس النقرة على خدها الأيسر كلما ضحكت. لكنتها وهي تتحدث تشبه لكنة أهل «بوروس» الطّرِبة، التي يتحدث بها «نامي»، رغم أنها أحيانًا لا تخلو من نبرة نباح. يجب أن يرضى بالأمر. فما حققه أكثر بكثير مما ظنها في البداية. إنه يعيش مع أمه، وهي في حد ذاتها معجزة.

استرد «نامي» صحته وبدأ يتجول في المناطق المحيطة القريبة من القرية، ثم اتسعت الدائرة التي يتحرك فيها. جفت الأرض. لم تسقط الأمطار منذ أعوام. أحيانًا تأخذه قدماه إلى الصخور التي يراها من بعيد. ثم يكتشف بضعة أشجار تنمو فوقها، ومن تحتها غابة صغيرة. يندهش للأمر، وتنفرج أساريره إلى درجة أنه بدأ يضحك.

هل من المعقول أن تسير الأمور كما يتمناها «نامي»، لا عكس ما يريد؟ هل من الممكن أن يتمتع بحياة هادئة، ومملة. حياة عادية؟ أن تصاب جنية البحيرة أخيرًا بالإرهاق، وتتوقف عن ملاحقته؟ أن يعيش أخيرًا مع شخص يحبه، وأن يقرر أحيانًا بنفسه في شيء يخصه؟ إنه لا يطلب الكثير - ليس أكثر من أن يذهب للتمشية، وأن يلعب كرة القدم مع شباب القرية، أو يستلقي فوق السرير ويتطلع الي سقف الغرفة إلى أن تؤلمه عيناه. أو يرى الضباب من جديد. تكفيه تمامًا جرعات السعادة البسيطة هذه.

«نامي» يرقد فوق الطحالب التي تظهر وسطها ثمار العنب الأحمر الصغيرة في آخر موسمها. يقطفها ويدسها في جيبه، ويعطيها لأمه. يعود إلى البيت بعد أن حلول الظلام.

خذي!

يقول لنامي وهو يفرغ ما في جيبه، ويضعه في كفه ليعطيه لأمه. حبات العنب طيبة متجمدة مثل حبات الثلج.

يقول العمدة إن موسم نثر البذور قد حل، وأنك أيضًا ستنضم إلينا.

تخبره أمه عرضًا، فلا يجيبها «نامي». يرفس حذاءه، ثم يصب الشاي.

تضيف أمه:

بعد أن تسترد عافيتك تمامًا بالطبع.

يميل «نامي» برأسه، وهو ينظر إليها بطرف عينه.

قالوا إنكِ فقدتِ القدرة على الكلام.

تجيبه أمه: «هذا صحيح»، وهي تمسحك وجهها بطرف جلبابها، لتزيل بقايا تراب الصحراء الذي عَلِق في ثنايا تجاعيد وجهها، شأن كل سكان القرية. ثم تضيف:

سأصنع لكَ...

احكي لي عما حدث

يقاطعها «نامي»، فتهز المرأة رأسها:

سأصنع لكَ طبقًا من الأرز.

تطهو له أرزًا بلحم الماعز، وحبات العنب الأحمر.

****

يصير النهار أقصر، وتشتد البرودة. في الصباح يلف «نامي» الأربطة على ساقيه، وينطلق إلى الصحراء. أراضي القطن نظيفة. حصدوا كل النباتات، وحرثوا الأرض، فصارت هادئة. هواء الشتاء يشع نورًا غريبًا، والصوت فيه له طبيعة خاصة، ينتقل إلى بعيد، حادًا وكأنه يتردد في فراغات معدنية. كلب ضال يتبع «نامي» وهو يتنقل في الطرقات. يتبعه كلب صغير في السن، حسب أقدامه والحيوية التي تبدو عليه. يتركه «نامي» يمشي بجواره؛ أحيانًا يرمي له غصنًا، ثم يشرع في إعطائه الأوامر، والكلب يطيعه. يعرف تمامًا ما يطلبه منه «نامي». يومًا ما أخذ الكلب معه إلى البيت، وتركه ينام في الدهليز رغم تذمر أمه. إنها المرة الأولى التي يفعل شيئًا رغمًا عنها. لكن «نامي» لا يتراجع. تخضع الأم لإرادته رغم خوفها من الكلب. والكلب يغط في نومه بصوت عالٍ أثناء الليل.

ذات يوم يفزع «نامي» من نومه على صوت صراخ وأصوات تعلو. يهم واقفًا فيتعثر بالكلب، ويخرج متوجهًا إلى ميدان القرية الذي امتلأ بسكان قرية

«أوروبور». يحملون في أيديهم بطاريات ومصابيح تضيء وجوههم العريضة وأنوفهم الكبيرة المفلطحة. يتحرك وسطهم أطفالهم بملابس النوم، ويصرخون بطريقة غريبة. وأمطار خفيفة تتساقط من السماء، فتصنع بركًا من الماء لا تؤثر على سعادة أهل القرية. يخلعون جميعًا ملابسهم، ويقفون عرايا تحت المطر البارد، وكأنه المَنّ يتساقط من السماء. «نامي» يتطلع إلى أعلى، يوجه ضوء البطارية إلى أعلى وهو يتابع زخات المطر التي تخترق ضوء المصباح. العمدة يدور وسط أهل القرية، يدفعهم بإصبعه، يوزع عليهم النظرات وكأنه صاحب الفضل في نزول المطر. امرأة عجوز نحيلة تضحك حتى شهقت. وسرعان ما تتحول شهقاتها إلى بكاء مفرط. وامرأتان ترقصان.

يقول «نامي» محدثًا أمه:

لا أتذكر أخر مرة رأيت فيها المطر. ولا أتذكر أخر مرة رأيت فيها الناس سعداء على هذا النحو.

يصيح المهندس الزراعي:

اللّٰه! يا رحمن يا رحيم!

****

في اليوم التالي ترافقه أمه وهو ذاهب إلى الصحراء للتمشية. لا أثر للأمطار. الصحراء كما هي دائمًا، جافة. باستثناء لمحة رطوبة في الهواء. الكلب يهرول أمامهما في سعادة، يتوقف بعد بضعة أمتار ليستحثهم بأذنيه المنتصبتين كي يسرعوا. كلاهما صامت، كالعادة. نشوة الليل بسقوط الأمطار وقفت بينهما كجلمود صخر خفي.

الكلب يتشمم المكان، ثم يقفز خطوتين مضطربتين إلى الأمام فيرى فريسته: قطة صحراوية نحيفة. لكنها أسرع منه بكثير، وتعرف المكان أفضل منه.

يقول لها «نامي»:

ما رأيكِ أن نعود إلى «بوروس»!

تنتفض المرأة، وتضم الفستان القطني حول جسدها.

الحياة هنا مستحيلة. إنها منطقة صحراوية جرداء، لا تنبت فيها شوكة. وغير صالحة للحياة. لماذا نظل هنا نعمل عبيدًا عند الروس الذين طردوا كل هؤلاء الناس من بيوتهم؟ لا قيمة للحياة هنا على الإطلاق!

تلتفت أمه نحوه، وتتوقف ثم تقول وهي تنتفض:

وما هي قيمة الحياة يا «نامي»؟ ما الذي له قيمة في هذه الحياة؟

الكلب ينبح باهتياج فيثير أعصاب «نامي». يصيح فيه: «اصمت أيها الغبي!». تختفي السحب من السماء مرة أخرى. ويتذكر الليلة الفائتة، فيتملكه شعور بأنه يحلم بزخات المطر الباردة تتساقط على وجهه. يتذكر أيام كان يقف في فناء المدرسة في بداية موسم الثلوج، والمُدرّسة تتركهم يخرجون إلى الفناء، يقفون بملابسهم الرثة، يتلقفون ندف الثلج بألسنتهم. يتذكر عندما كانت الثلوج تسقط بغزارة، فيستلقون ويصنعون فيها بوجههم بصمات، أو يبنون من الثلج أشكالًا بذيئة إلى أن تبتل قفازاتهم تمامًا، أو

تستدعيهم المدرسة للعودة إلى الفصل حيث الدفء. بدا له كل هذا بعيدًا جدًا.

أنا يا عصفوري لا يمكن أن أعود إلى «بوروس».

ولم لا؟ لماذا؟

يستدير الكلب مذعورًا، ثم يسقط ذيله بين قدميه.

يا إلهي! كفاكَ يا «نامي»! اسكت! توقف عن الصياح! أنا لن أعود إلى البحيرة أبدًا.

أمسك كل منهما عن الحديث، وواصلا السير وسط التراب. ينظران إلى الأمام، وكل منهما يتجنب نظرات الآخر.

****

كانت صغيرة! كم كان عمرها؟ سبعة عشر؟ نعم، كانت في السابعة عشرة من عمرها. لم تكن قد بلغت سن الرشد بعد، ولا ذاقت طعم الفودكا، ولا السجائر. وقت أن كانت تذهب إلى المدرسة كانت الفصول مشتركة.

الأولاد مع البنات في فصل واحد. بالتأكيد لم يكن أمرًا طيبًا. كثير من المشاكل، والمضايقات المتبادلة. هي نفسها ضربت أحد الأولاد الذي لم يتوانى عن مضايقتها، وكان باستمرار يرفع تنورتها. ضربته فأصابت حاجبيه. وحدثت مشاجرة في مكتب المدير. لكنها لم تقدر على السكوت. كان أيضًا معهم تلميذ، لا يصلح للبقاء في مدرسة عادية. كان معاقًا إلى درجة كبيرة. كان بالفعل كذلك. كثيرًا ما كان يغني مع نفسه بصوت عالٍ، يحرك يديه، أو يصُفّ الأشياء فوق الدكّة – حبات كستناء، وأحجار، وأقلام - حسب نظام ما. ولو أن أحدًا أفسد له مصفوفته يخبط رأسه في الدكة إلى أن تنزف دمًا. مثل هؤلاء التلاميذ لا يليقون بمدرسة عادية وسط الأطفال العاديين. أليست على حق؟

من المؤكد أن باقي التلاميذ كانوا يسببون له الأذى؛ يحرقون كراساته، ويبولون على واجباته المدرسية. هكذا تسير الأمور عندما يظهر شخص غريب الأطوار.

ينتبه «نامي» فجأة إلى أن أنه يمشي بجوار فتاة تقاربه في العمر. فمها يتحرك وكأنها تسير مع مجموعة من صديقاتها، حتى حركات العجائز استبدلتها بإيماءات مليئة بالحيوية.

أُعجِب ذلك التلميذ بأمه وقتها. لا تعرف كيف حدث هذا. المؤكد أنها لم تغريه كي يعجب بها. راح يتابعها كل يوم وهي عائدة إلى البيت. ينتظرها أمام المدرسة، ثم هجم عليها، وأخذها في أحضانه. أعطاها حبات حلوى شفافة، وأحجار ملساء أحضرها من البحيرة. رأى زملائهما ما حدث، فراحوا يسخرون منها. شعرت بالاستياء، لكنها لم تغضب من ذلك الولد الغبي بسبب ما فعله. فقد كان شيئًا تافهًا. كما أنه كان عاجزًا عن فهم أيّا مما قالته له. راحت تقرصه وهي تدفعه بعيدًا. فهو لم يفهما عندما طلبت منه أن يذهب إلى بيته، أو عندما ضحكت مما فعله وحاولت أن تسخر منه. كان أمرًا لا يطاق.

«نامي» يشعر بتوتر في جسده يتزايد كلما استقام في مشيته. يشعر بألم في كل عضلات صدره الذي ينتفض

من البرد. حتى أمه فجأة تسمرت، وصمتت، وبدأت تفرك أصابعها. تقول له:

هيا بنا نعود!

فيومئ «نامي» بالموافقة دون أن يتحدث، وهو يشعر أن رقبته قد تجمدت. يسألها:

إنه ليس أبي، صحيح؟

لم يكن في مقدوري أن أفعل شيئًا يا عصفورتي! لا ذنب لي فيما حدث. انتظرني وسط البيوت وأنا عائدة المنزل. كنا في شهر يناير، بعد الغروب. قفز عليّ من الخلف.

جعد «نامي» أنفه. بدأ الظلام يرخي سدوله. وأولى مصابيح القرية تضيء من بعيد. سارا في صمت. أمه تتأبط ذراعه بعد أن عادت امرأة عجوز، رغم أن عمرها في شهادة الميلاد فقط خمسة وثلاثون عامًا.

بعد قليل يسألها «نامي»:

ما اسمه؟ هل أعرفه؟

شاهناز، كان اسمه شاهناز.

هل مات؟

إنه مع جنية البحيرة.

ماذا حدث له؟

تنهدت الأم، وقالت:

ماذا حدث له؟ صنعت خمس عشرة، أو ربما عشرين سجادة صغيرة قبل أن أستعيد قدرتي على الكلام من جديد. لا يمكنني أن أتحدث عن الأمر.

أجابها «نامي»:

فلنسرع. أين الكلب؟

انتظرا انتظرا

راحت تلهث، وتدفع بيدها اليسرى خصلات شعرها الذي انزلق من خلف غطاء رأسها.

في نفس اليوم مساءً ذهبوا، وأخذوه من سريره بينما أمه تصرخ، وتهجم على الشباب. لكن كيف لها أن تتغلب عليهم؟ ضربوه، وحكموا عليه بالإعدام رميًا في البحيرة.

في البحيرة؟

توقف «نامي» كي يحتضنها. صاعقة حلت عليهما. شعر «نامي» بالبرد ينتشر في مفاصله. عليه أن يكون عونًا لها وقد عثر عليها بعد جهود مضنية. عاوده القلق، فالأمر لم ينتهي بعثوره عليها. وهو عاجز عن أن يمنع نفسه من الكلام:

هل تشعرين بالذنب؟

لم أكن أعرف بما سيفعلونه به. لو أنني عرفت لما أخبرت أحدًا بما حدث.

ليس ذنبك ما حدث. إنهم بربر. وهي أعرافهم الغبية.

يسألها «نامي» بعد لحظات وهو لم يعد يرغب في سماع المزيد:

ثم ماذا حدث؟

لم يحدث شيء. في الليل أركبني والداي الحافلة، وأرسلاني إلى العاصمة. كانا يعرفان جيدًا أن الرجال سيلقون عليّ باللائمة بمجرد أن يستفيقوا مما حدث. وكان ما كان. تصحرت الأرض، وتراجعت المياه في البحيرة، وصارت أيام سيئة في البحار – كل هذا نتيجة لما اقترفته من ذنب. غضبت جنية البحيرة، وكان لا مفر من إرضائها، وإطعامها.

إنهم متخلفون، وكان في مقدورهم أن يقدموكِ أضحية أنتِ أيضًا.

تهز أمه كتفيها:

غالبًا كانوا سيفعلون. ولم ننتظر ما سيفعلونه.

أضواء القرية تتأرجح في هوادة من بعيد. الليل يرخي ستائره الثقيلة. صار «نامي» أكثر قبولًا لأدق التفاصيل كلما قلت التغييرات المناخية في الصحراء. أحيانًا يجد نفسه يتشمم حوله مثل هذا الكلب الغبي، وأحيانًا يرهف السمع. لكنه الآن يشعر بالبرودة، وينتفض من الغضب. أمه عالقة في ذراعه، وكأنها تترك له السيطرة على جسدها. حدثته عن زوجها الذي التقته في «أوروبور». كان فظًا وأخرق، لكنه أحبها. بعدما سافرا إلى الصحراء بدأ يعاقر الخمر، ويضربها. كسر لها بضعة أسنان، وجعلها تجهض طفلهما. وفي النهاية سقط في إحدى قنوات الري أثناء الليل وهو عائد من الحانة، ومات غرقًا. ارتاح بالها. لا تريد أن تغير هذا الأمر. هذا كل شيء. وهذه هي كل حياتها. لن تعود إلى البحيرة مرة أخرى. تشعر الآن بالبرد، والإرهاق، وتود أن تعود إلى البيت فورًا.

****

لم ينم «نامي» في تلك الليلة رغم الإرهاق الذي نال منه. وعندما قرر أن ينهض ويخرج للتمشية وجد أن

أمه تجلس فوق السرير، وهي تستند بظهرها على الحائط، ويدها معقودة في حجرها. جلس بجوارها، وظل بجوارها إلى أن انبلج نور الصباح. غشيهما النوم في بزوغ النهار، رأس كل منهما على كتف الآخر. مستقر عليه مثل حبتان خشخاش. يتنفسان بنفس الإيقاع، ويحلمان نفس الأحلام الغريبة.

****

أصاب القلق القرويين منذ الليلة التي سقط فيها المطر. يتجمعون كثيرًا في ميدان القرية، حتى أثناء الليل. يبقون هناك طويلًا؛ يتبادلون الأحاديث الزاعقة، والعمدة يرسل تلغرافات إلى المركز بما يحدث، لهذا السبب يتزايد عرقه، وتبدو ابتسامته أكثر زيفًا. وبعد شهر يبدأ موسم الزراعة. وآخر ما ينتظره العمدة هو أن يعالج اضطرابات قد تحدث. بعد أسبوع من مناقشاتهم تأتي الطلبات: يريدون أيام الجمعة بلا عمل من أجل الصلاة، وأن يبنون مسجدًا في ميدان القرية، وأن يدفنون موتاهم في الجبانة في اتجاه الكعبة. يسألهم العمدة بمودة إن كان هذا يعني أنهم

سيتوقفون عن شرب الفودكا بعد أن صاروا متدينين. لكن وجوههم العابسة أجبرته على أن يتراجع عن المزاح معهم. يرسل التقارير إلى المركز بكل همة. يتساقط المطر من جديد. ويحتد النقاش إن كانت هذه علامة خير أم شر. يرفض الرجال الصعود إلى الشاحنة والذهاب إلى الحقول عندما بدأ موسم الزراعة قبل أن يلبي العمدة طلباتهم. أخفى العمدة عنهم رفض طالباتهم في المركز، وراح يصرخ فيهم بأن يحمدوا الله أن لديهم ما يأكلونه. تبادل الرجال النظر قليلًا، ثم راحوا يدمدمون. في النهاية بدوا الصعود إلى صندوق الشاحنة. لكنهم بدلا من أن يذرعوا حبوب القطن راحوا ينثرونها في الهواء، ثم يجلسون فوق الخدود يثرثرون. «نامي» يجلس بالقرب منهم، يتناول وجبة خفيفة، والمهندس الزراعي يولول، والعمدة يعتصر قبضته.

ثم ينهض الرجال، ويتوجهون نحو الشاحنة. ينزعون من على جانبها الشعار الحماسي حول زيادة محصول القطن. وشابان في عمر «نامي» يقفزان ويرقصان

الدبكة فوق الملصق. يرفع العمدة يد في الهواء، ويصيح:

أيها الرجال، هل جننتم؟ ستحدث مشكلة كبيرة! كلنا نعرف هذا. هل عليّ أ أتصل بهم في المركز ليرسلوا جيشًا إلى هنا؟ أهدئوا! وكفوا عن العبث، وعودوا إلى أعمالكم، وسوف أنسى ما حدث.

الرجال يتجاهلونه، ويشعلون السجائر. ثم يصعدون إلى الشاحنة، ويضرب واحد منهم على صندوق السيارة، ويصيح:

لنعد إلى البيت!

يقفز السائق إلى الحجرة، ويدير المحرك. يصعد باقي الرجال ومعهم العمدة. القرية على بعد سبعة كيلومترات.

****

تأتي أخبار باندلاع احتجاجات في «أوروبورو»، وفي قرى أخرى دون أي رد فعل من المركز. صمت تام. حقول القطن تنتظر، تنتشر فيها الأعشاب الضارة بضراوة مع بداية الربيع. يشرع الرجال في بناء المسجد. في المساء يجتمعون في الميدان، يشربون الفودكا، ويفكرون فيمن سيكون إمامًا للمسجد. يطلبون من النساء أن يغطوا رؤوسهم. وربما لن يكون هذا كافيًا. يؤكد بعضهم أنه ربما سيتوجب عليهن تغطية وجوههن. تقول الأم على مضض:

عليكم اللعنة!

إنهن يغطين رؤوسهن على أية حال. وعندما يبالغ الرجال في الشراب يزعقون فيها، وفي باقي سيدات القرية. يطلقون لِحاهم، ويتظاهرون بالأهمية.

بدأت عربة التموين التي تحمل الأغذية إلى القرية تظهر دون انتظام. توقف البريد عن العمل، وأيضًا الأتوبيس. في صباح أحد الأيام ظهر التمثال النصفي للزعيم مطليًا باللون الأحمر؟ جمع العمدة أغراضه، لكن

المركز لا يسمح له بمغادرة المحطة. يجب أن يرسل تقارير حول تدني الأخلاق يومًا بعد يوم. يجد ذات صباح صليبًا موسومًا بعلامة Xعلى باب مكتبه، كتبوه بزيت محرك السيارة، وضفدعة مثبتة بمسمار. لم ينتظر العمدة. صعد إحدى الشاحنات، وانطلق بها خارج القرية.

صار الدكان خاويًا تمامًا، ونضب كشك الخمر. المكتبة هي الشيء الوحيد الذي ظل يعمل في القرية. لكن أحدًا لا يدخلها. تمثال الزعيم النصفي يرقد في التراب. وحوله جذوع نباتات عجزت عن النمو. صحراء. الأم تعمل في الحديقة، تعزق أرضها، وتزرع حبوب الفاصوليا، والبطاطس، والجزر، والبصل كي يجدوا ما يأكلونه. تقايض ثلاث دجاجات بقطعة كِليم، وقطعة أخرى بجوالين من البندق، ونصف دستة من برطمانات العسل.

"لابد أن نرحل من هنا"، كل يوم يعيد عليها هذه الجملة. لكن الأم تكتفي بهز رأسها. لديها هنا كل ما

تحتاجه. الرجال سيهدئون بعد قليل، وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه.

لم يكتمل بناء المسجد. توقف عند بناء المئذنة بعدما نفذت مواد البناء. وصار الآن مائلًا بعض الشيء. ولا يكف الرجال عن التأكيد بأن المسجد يميل ناحية مكة. بشائر الربيع تملأ الهواء. نبات الحلاب ينتشر في الأراضي المحروثة وسط خطوطها، وعصفور القنبر الصحراوي يقفز هنا وهناك.

مرت أيام لا يتذكر "نامي" فيها الحب ولو مرة واحدة. لكن مع مقدم الربيع يتعاظم شوقه. يسمع أزيز الباب أنّات، ويشتم رائحة المهبل في ثنايا فوطة الوجه. يشعر باللوعة عند سماع الأغاني الشعبية الغبية التي ترددها نساء "أوروبور" وهن ينتظرن عند النبع لملأ الجِرار. تراوده أحلام اليقظة. يحلم ب "ظاظا"، وهو يولج فيها قضيبه، وهي ترفع جسدها فوق ذراعيها كي يرى كيف سيتصل بها. ثم يميل عليها كي يأخذها في أحضانه ويضاجعها بكل ما أوتي من قوة. أحلامه دائمًا لا تبلغ منتهاها. فغالبًا ما ينتبه ومازال قضيبه منتصبًا،

فيضرب الوسادة من الغضب، يغطي وجهه بساعده، ويتأوه. أحيانًا يعض نفسه حتى يسيل الدم.

****

"يجب أن نرحل"، يقول لأمه. ترفض مبررة أنها لا تريد أن تبدأ من جديد، وأن لديها كل ما تحتاجه، وأن الرجال قد عادوا إلى رشدهم. حتى أنهم بدؤوا يتحدثون عن زراعة أراضي القطن، صحيح أنهم تأخروا عن موسم الزراعة، لكن سيحاولون. يجب أن يواصلوا حياتهم.

يقول لها "نامي" متوسلًا:

يجب أن أعود إلى «بوروس»

تصمت الأم، وأثناء الليل تبكي. تعرف أنها لن تعود إلى البحيرة. ولن تودعه إن رحل. تغرق في الصمت من جديد.

## يافعة

الطريق إلى العاصمة طويل، ومرهق. استغرقت رحلة "نامي" إلى هناك أسبوعًا بالكامل. قطع بعضه متنقلًا بسيارات استوقفها، ثم اضطر إلى أن يمشي طويلًا على قدميه. يرى بعيدًا من على الطريق قرية محترقة. مرت به أكثر من مرة أرتال عسكرية روسية. الجنود صامتون، وتائهون في أفكارهم. الصحراء تبدو مترامية بلا نهاية، وتزحف حتى العاصمة. المدينة ساكنة، وهياكل السيارات المحترقة بطول الطريق ترحب به. واجهات المتاجر متهشمة، أو مغطاة بالكرتون. أكشاك السوق مهجورة، ومقلوبة رأسًا على عقب. أوراق الجرائد تتطاير في الهواء، على شكل مثلثات كانت معدة لحمل حبات عباد الشمس المشوية. حائط حديقة السيدة العجوز محطّم، والأشجار التي شذبها تكسرت، وقصارى الزرع مسحوقة. يصل "نامي" فيجد السيدة العجوز تجلس في الشرفة تحتسي الشاي من كوب خزفي. "فيركا" تجلس عند قدميها مثل كلب وفيّ. السيدة العجوز

تنهض واقفه، وتضمه إليها. تحتضن وجهه بكفيها الدافئين. تقول إنها كانت خائفة عليه، وأنها سعيدة بعودته. أشياء رهيبة حدثت. رعاع "أوروبورو" دمروا حديقتها، داسوا كل شيء، ونهبوا كل شيء – قبل أن تصل الشرطة – يا إلهي! لم تتخيل يومًا أنها ستتصل بتلك الشرطة اللعينة. أيعرف "نامي" ماذا فعلوا بها؟ شدّوا ستائر الصالون وتبرزوا فيها. هشموا قنينة السكر فوق الحائط. نثروا بسكويت الزنجبيل المضاد للانتفاخ فوق الأرضية، وسحقوه بأقدامهم. هل هو مدرك لهذا الأمر؟ توردت عينا "فيركا" من البكاء. تنشج وتقول إن أهل "أوروبورو" متخلفون وحيوانات. لقد احتلوا المدينة التي وفرت لهم الطعام. أخذوها عنوة. لكن لحسن الحظ الجيش سيطر عليهم. تسببوا في خسائر كبيرة. إنهم عاجزون حتى عن القيام بثورة حقيقية.صرخت فيها السيدة العجوز، وأرسلتها لتسخن الحليب بالعسل ل "نامي". تقول إن أهل "أوروبورو" حيوانات جهلة، ولا يمكن أن تغضب منهم لأنهم مساكين.

يقول "نامي" معتذرًا:

أنا لا أحب الحليب بالعسل.

حقيقي؟ لماذا إذن لم تخبرني بهذا الأمر من قبل؟

يهز «نامي» كتفيه.

تحكي له السيدة العجوز كيف أنها كانت تجلس في بيتها بعد أن نهبوه، في غرفة الصالون تعزف على البيانو مقطوعة موسيقية حالمة ل شوبان عندما وصلت دورية من ثلاث أفراد من الجيش الروسي. قالت السيدة العجوز باستياء:

شابان أكبر منك قليلًا يا «نامي». ملابسهم يعلوها التراب. كان من الواضح أنهم غير مؤهلين للتواجد في مكان كهذا. يحركون أياديهم الطويلة بشكل أخرق بمحاذاة أجسادهم مثل دببة في سيرك. كان من الواضح أنهم لم يدخلوا مكانًا بهذه الفخامة من قبل رغم أن كل شيء كان مدمرًا. إنهم رجال قادمون من

أماكن نائية لا يستحمون فيها إلا مرة واحدة في الشهر في ماء المطر.

تضيف:

كان معهم قائد، رجل نحيف، يقارب الأربعين، نظرة كئيبة أسفل حاجبين ثقيلين. لم انتبه لوجودهم إلا بعد ان انتهيت من عزف آخر نوتة موسيقية. ظل ذلك الملازم عابسًا كمن يعمل يوم إجازته. وفي النهاية قال إنهم جاءوا طلبًا للمياه.

أصلحت السيدة العجوز بروشا به حجر كريم فوق صدرها بطريقة احتفالية، وأضافت:

دخل الرجال إلى المطبخ لشرب الماء، وأشار الملازم إلى البيانو وسأل إن كان في مقدوره أن يعزف عليه. لم أكن لأسمح لذلك المملوك أن يلمس البيانو الذي اشتراه لنا أبي خصيصًا من برلين.

«نامي» يتابع «فيركا» وهي جالسة على درج الشرفة الحجري، وتدس إصبعها في ثقب أحد الجوارب. طائر

كبير يحط ثقيلًا على غصن شجرة التين.

هل تسمحي لي؟ سألني الملازم بكل أدب وذوق. فتركته يجلس. أومأ لي ذلك المملوك وكأنه في قاعة موسيقية، وبدأ العزف. تخيل! عزف مقطوعة موسيقية أخرى حالمة ل «شوبان». كانت أصابعه طويلة، تدل على نبل وكأنه رخمانينوف.

تتنهد «فيركا» وتقول بلهجة حالة:

عزف بطريقة رائعة.

ترمقها السيدة العجوز بانفعال.

بالتأكيد عزف بطريقة رائعة. بالطبع كنت أعرف أن ذلك المحتل الروسي يعزف أفضل مني بكثير. تساقط ذقن «فيركا» دهشة، وكذلك وقف الرجلان الآخران مشدوهان. وقفا عند الباب، يحملقان فيه بفم مفتوح. أتعرف ما قاله له بعد أنتهي من العزف؟

مالت السيدة العجوز على «نامي»:

قال، اعذريني! قالها فعلًا يعتذر لأنه لم يتدرب منذ وقت طويل، وأنه كان أستاذًا في معهد الموسيقى. بدا وكأنه سينفجر في البكاء في أية لحظة. قال أحد الجنديين إن المياه مقطوعة. مسكين! حاول أن يبدد الارتباك الذي وقع فيه قائده. كان مشهدًا مؤثرًا للغاية.

سكتت السيدة العجوز عن الكلام. وصدر من بعيد صوت صفارة إنذار متقطع. نظر «نامي» إلى راحتيه، فوجد أن نظراته مشتتة.

واصلت السيدة العجوز:

سألته إن كان الدم الذي على زيه هذا هو دم أحد سكان «أوروبورو». فقد رأيت بقعة داكنة على صدره. أتفهم؟ لكنه ابتسم بملل، وأقال إنه ليس كذلك. الحمد لله. لم تكن سوى أثار زيت محرك. رغم ذلك أضاف أن أيادي الجميع ملوثة بدم أهل «أوروبورو».

صاحت «فيركا» تفسر الأمر بصوت متصدع:

يُقال إن هناك حفرة خارج المدينة، دفنوا فيها كل البسطاء والغلابة.

انتبه «نامي».

تهز السيدة العجوز رأسها محتجة:

لقد أخبرته برأيي فيهم. قلت له إنهم حيوانات. قلتها بالروسية كيف يفهم Svóločtakája كي لا يظن أنه بعزفه على البيانو سيصلح الأمر. رغم ذلك طلبت منه أن يواصل العزف. أحضرت "فيركا" الكونياك، وشربنا. فأخذ الملازم مكانه فوق المقعد من جديد، ورفع أصابعه الطويلة فوق البيانو، وبدأ يعزف لحن Očičornyje. يا إلهي، كم كان عزفًا رائعًا! تطايرت أصابعه على أزرار البيانو من اليسار إلى اليمين وكأنها أصابع جِنّي! ألقي في جوفه كأس كونياك، ثم عزف لحن Dvěkytary وأتبعه بأغاني غجرية. رأسه مدلاة وعيناه مغلقتان. شرب وعزف حتى سقط من فوق المقعد.

هزت السيدة العجوز رأسها، وواصلت:

جلس الجنديان صامتين فوق هذه الكنبة المطرزة. استسلم أحدهم للنوم، وبدأ يغط في نومه بنصف صوت. لكن الآخر. الجندي الثاني واصل الاستماع في صمت فاغرًا فاه. كان عليهم أن يسندوا رئيسهم وهم ينصرفون. أنتَ لا تسمعني يا «نامي»؟

نام «نامي».

****

يقول «نامي» لاحقًا:

سأساعدكم في إصلاح ما أفسدوه.

أنتَ شاب طيب!

يسعدني أن أفعل هذا.

تحضر «فيركا» كوب شاي بالنعناع محلي بالسكر، ويحكي «نامي» للسيدة العجوز كيف عثر أخيرًا على

أمه، وأنه سعيد بها رغم ما في الأمر من غرابة. نعم، كلاهما سعيد بالآخر، ويحبه. نعم، لقد أصبحوا أكثر قربًا من بعضهما. لكن شيئًا بينهم قد انكسر إلى الأبد. السيدة العجوز تسعل. تهز رأسها وكأنها كانت تتوقع هذا طوال الوقت، ثم تقول:

أمامك رحلة أخرى، أليس كذلك؟

يومئ «نامي» برأسه، نعم، يجب أن يذهب إلى «بوروس». فلديه هناك، امم، أقرباء.

تقول السيدة العجوز:

لكن هذا أمر قد ينتظر، الآن خذ نصيبك من الراحة.

يسقط «نامي» تحت غطاء السيدة العجوز المفعم بالتراب، وهو يتمنى أن يرى بعدما يستيقظ أن كل ما حدث له في السنوات الأخيرة كان مجرد حلم.

****

إنها حالة الطوارئ. الشوارع خالية إلا من سيارات الشرطة. فتشوا «نامي» بضعة مرات. اختفى المشردون من الشوارع، وحتى الكلاب الضالة. المتاجر منهوبة ومغلقة. صار المكان الذي كان بورصة للعمل خواءً. المنتزه تملؤه القمامة، وبعض الأرائك انقلبت رأسًا على عقب. الحوائط والدب الحجري في منتزه المدينة تعج بشعارات تدعو إلى استقلال «أوروبورو». غالبية الشعارات لا تخلو من أخطاء لغوية وإملائية. يتقدم «نامي» فقص القرود فيجد شباكه ممزقة، وخالي. يقترب فيراه. كتلة من الشعر تتكوم فوق الغصن بجوار السقف. يتدلى من الغصن سلسلة وعليها إطار سيارة. ينادي عليه «نامي» بسعادة:

ميمون!

يتذكر متى شعر بالسعادة وهو يلتقي بأحدهم مثلما يشعر الآن.

ميمون!، أيها الغبي العجوز! قفصك مفتوح، هيا اخرج أيها الصبي! سأهتم بكَ! هيا تعال!

تحرك ميمون وأراد أن يلتفت إليه. راح يحدق في «نامي».

ألا تعرفني يا ميمون؟ تعرفني، أليس كذلك؟

ينظر إليه ميمون دون اكتراث، ثم يشيح برأسه بعيدًا.

اسمع! معي لكَ شيء! حبة جوز! يا ميمون!

يتحرك القرد ببطء وبحذر شديد. يخطف حبة الجوز من «نامي»، ثم يعود سريعًا إلى الركن الذي تكوم فيه، ونسي «نامي».

يا ميمون! ألا ترى أنك أصبحت حرًا!

ميمون يبدأ في مط قضيبه، وهو يصيح باهتياج.

****

يستلقي «نامي» فوق الرصيف الخرساني في الميناء ليستريح، يراقب عمال الميناء وهم يجلسون على قضبان القطارات الصغيرة القادمة من محطة قطارات

النقل. اختفت عربات النقل من فوق القضبان، ونبتت خصلات العشب الأخضر الباهت وسط ألواح الخشب. العمال بلا عمل منذ وقت طويل. رغم ذلك يلتقون هنا لأنهم اعتادوا هذا. الرجال يدخنون في صمت. يصرخ أحدهم بين الحين والآخر، فتأتي الإجابة بصوت يزداد قوة تدريجيًا، لكن «نامي» لا يفهم منهم شيئًا.

يجلس عند حافة الرصيف وهو يلوك حبات السمسم المحمص. على يمينه طريق إسمنتي يؤدي إلى البحيرة حيث رصيف الميناء الذي كان وصار جافًا. في المكان الذي كان يومًا منصة هابطة تقف سيارة كبيرة سوداء، تبرق من النظافة. لا تساور «نامي» أية شكوك في أنها سيارة «جوني». عنده سيارة بنفس المقدمة الفضية والمصابيح المزدوجة. من المؤكد أن «جوني» جاء إلى المرفأ لمقابلة موزع المخدرات. سيعود بعد لحظات بجيوب ممتلئة بالكوكايين والهيروين. كيف صدق «نامي» نفسه عندما ظن أنه لن يلتقي به مجددًا.

السيارة تلمع تحت أشعة الشمس وكأنها لباس «الفرقة الذهبية» المصفح. إنها سيارة «جوني» المفضلة. تجسيد لرغباته ونجاحاته. إن مشاعره تجاه كومة الصفيح هذه أكثر حميمية من أي مشاعر تجاه أي شخص ظهر في حياة «جوني» على الإطلاق. ولا حتى ذلك القط الغبي الذي لم يظهر له «جوني» أية محبة.

«نامي» يعرف بالتأكيد أين يضع «جوني» مفتاح السيارة البديل. في استطاعة «نامي» أن يدخل السيارة، ويطلق كوابحها، ثم يدفعها قليلًا. زاوية انحدار المنصة كافية أن تدفع السيارة بالسرعة المطلوبة لتنطلق على المنحدر وتصل إلى سطح الماء. تكفي أن تتدفق المياه النتنة إلى السيارة من أبوابها المفتوحة، وتدمر مقاعدها المغطاة بالجلد إلى الأبد، وتفسد مشغل الموسيقى الغالي. تكفي لأن يتراكم الطين على محركها ولا يعمل بعدها أبدًا. يلتفت «نامي» حوله، وبسرعة يتدبر أمره. إنه يبعد عن السيارة حوالي خمسين مترًا، مسافة كافية. يهرول

نحوها. يفزع «نامي» عندما يسمع صوت نفير ناقلة بترول. يلمس شيئًا ناتئًا خلف العجلة الأمامية ناحية اليسار. إنه المفتاح مغلف في كيس بلاستيكي، ملتصق ببضعة طبقات من الشريط اللاصق. يحرك إصبعه فوق شيء حاد فيؤلمه، وينزف الدم من إبهامه. يطلق اللعنات بصوت مكتوم. يستلقي أسفل السيارة من الأمام، ويحاول تحرير المفتاح بيده الأخرى. المفتاح مثبت بجسم السيارة بخمسة شرائط لاصقة على الأقل بالطول والعرض. ينزعها «نامي» واحدًا تلو الآخر. يدس ظفره بين الشريط اللاصق وجسم السيارة. ثم يمسك الشريط بين الإبهام والسبابة، وينزعه بقوة.

يستقيم جزعه مرة أخرى، وقد تلوثت يداه وتجرّحت، لكنه يقبض على الكيس البلاستيكي الذي تراكمت عليه القذارة. يتقدم من السيارة من ناحية باب السائق، ينظر إلى صورته في زجاج السيارة الغامق. ما هذا الذي أفعله؟ يقول لنفسه. يفرد ذراعه الذي يحمل فيه المفتاح، ويغلق عينيه. ثم يأخذ نفسًا عميقًا، يفرد ذراعه عن آخره ويقذف المفتاح في البحيرة بكل قواه.

لكن سطح الماء بعيد، فيصفع المفتاح طبقة من الطين تسحبه إليها وتنغلق عليه.

كأن «نامي» قد فقد خمسين كيلوجرامًا من وزنه. يعتدل، ويأخذ نفسًا طويلًا. يرى «جوني» قادمًا من عند المستودع، يسير على مهل، بحيوية ولامبالاة. يقول «نامي» لنفسه لو أن جنية البحيرة موجودة فعلًا فلابد أن يكون لدى «جوني» فوق رقبته ورم ضخم، أو على الأقل رأس أصلع، أو تقرحات في وجهه. لكن «جوني» يبدو من بعيد بنفس الحيوية والشباب، والصحة كما اعتاد أن يراه.

يحيه «نامي» بصوت أعلى من العادة:

مرحبًا جوني!

يرفع «جوني» رأسه باندهاش. ضوء الشمس يبهر عينيه خلف النظارة الشمسية فلا يرى.

«نامي»! أيها القذر!

يصمتان وكلاهما يرمق الآخر. تشتد الرياح حاملة ترابًا مسممًا. يغطي «نامي» وجهه بذراعه، ويقول:

لا أرى عينيك.

يخلع «جوني» نظارته في تهاون. يده ترتعش قليلًا. يمسك بالنظارة من إطارها، قريبًا من سطح مرآتها، وهو عاجز عن إخفاء استيائه من اللقاء.

«نامي» يضع يده في خصره وكأنه يوشك أن يستل بندقيته. يدقق نظره في عينيه طويلا. تتسع حدقتا «جوني». اشتدت حرارة الجو، وتساقط العرق من كليهما. «نامي» يشعر بنبضات قلبه في كل أنحاء جسده.

يقول «جوني» وهو يشيح بنظره بعيدًا:

عليكَ اللعنة! نحن لسنا في فيلم كاوبوي أيها الغبي!

«نامي» يضحك، ثم ينصرف. يسمع «جوني» وهو مازال يصيح. صياح مزيف من رجل يائس. عمال

الميناء يتابعون «جوني» صامتين، يتابعونه وهو ينصرف في سيارة تلمع، ثم يبصقون في التراب تحت أقدامهم.

****

يحاول على مدار أسابيع إصلاح الخسائر في حديقة السيدة العجوز؛ يقطع الأشجار التي تعرضت للتخريب، ويذرع غيرها. (تسأل السيدة العجوز بنصف رقة ونصف حزن: «هل سأعيش لآكل من ثمرات توتها؟). «نامي» يعزق الأرض من جديد، ويغرس الشتلات. يقوم ببناء جزء من حائط الحديقة الذي انهار، ربما على نحو بسيط لكنه معقول. ويزرع شجيرات اللبلاب بجواره. الماء موجود لكنه غير وفير، ويزداد ندرة يومًا بعد يوم. لذلك تجف كثير من نباتاته قبل أن يرى السعادة منها على وجه السيدة العجوز. يخبرها أن وردة بجوار العريش قد كبرت أثناء الليل.

تسأله السيدة العجوز بانفعال:

وكيف تبدو ألونها؟ أخبرني!

يهز لها «نامي» رأسه، فتسرع بارتداء حذائها، وتكاد تهرول سريعًا كي ترى الوردة بنفسها. جذعها نحيف، وواهن وكأنها كانت مريضة، لكنها مكتظة بأوراق خضراء بهية وزهرات قرمزية.

«أحدها أبيض اللون، أليس كذلك؟»،تسأل السيدة العجوز، ولأول مرة منذ التقى بها يسمع في صوتها تهدجًا. يهز «نامي» رأسه بالإيجاب. تميل السيدة العجوز بجزعها، وتلمس بحذر إحدى البتلات البيضاء فوق غصن الوردة الغريبة، ثم تقول إنها كم ترقبت هذه اللحظة. في كل عام يأتي أبوها، وينادي على الجميع، ويقول: لقد ازدهرت وردة بيضاء! ينادي، فيلبي الجميع نداءه هرولة إلى الحديقة. يشربون بعدها الشاي تحت العريش، ويأكلون معه بسكويت بطعم الخزامى. كلهم سعداء من ذلك الحدث الغريب: حيث تنبت زهرة بيضاء على جزع وردة حمراء، تمامًا مثل فساتينها وفساتين شقيقاتها. يبتسم أبوها من خلف نظارته، وأمها تصفق بيديها، ثم تصب الشاي في

أكواب خزفية اشترها من باريس. لا يمكن أن تتذكر آخر مرة رأت فيها هذه الوردة تزدهر على هذا النحو؟

تهيم في أحلام اليقظة للحظات، ويهتز ذقنها.

عزيزي «نامي»! لقد أعدت لي السعادة. مرة أخرى أشعر أني مازلت على قيد الحياة. ظننت أن... عندما دمر هؤلاء الغوغائيون كل شيء، راودني شعور بأن التراب قد غطي كل شيء. وأنني لن أستطع لمسه مرة أخرى. وأني لن أقدر على الحياة هنا. لكن الأمر غير ذلك. الإنسان يقف على قدميه مرة أخرى، شيئًا فشيئًا، أليس كذلك؟

تبتسم السيدة العجوز، ثم تشعل سيجارة.

يا إلهي! هذه الوردة! لم أتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد!

تضيف بعد قليل:

سيلغون حالة الطوارئ بعد أسبوع، ويمكنك أن تذهب إلى «بوروس».

كم يود أن يطلب منها «نامي» أن ترافقه في هذه الرحلة. لكنه يعرف أنه لا يمكن أن يطلب شيئًا كهذا. يجب أن يذهب وحده. كم هو خائف من هذه الرحلة.

****

الأتوبيسات لا تعمل. وعليه أن يذهب سيرًا على الأقدام.

الطريق ترابي. تحفه بين الحين والحين زهرات الفيرونيكا صفراء أو الجاجيا زرقاء واهية. أحيانًا يمر «نامي» بهيكل سيارة صدئ، نبت العشب في أحشاءها. ما هو مصير ركابها؟ هل فرغ منهم البنزين، أم أصابها عطب ولم يعثروا على من يساعدهم؟ هل أغارت عليهم العصابات؟ أو رجل روسي يحمل رشاشًا، وذهب يبحث عن سجائر، والتهمت الحيوانات الضارية جثث ركاب السيارة؟ نظر «نامي» إلى إحدى السيارات

فرأى خفًا بلاستيكيًا بنفسجي اللون، ونظارة شمسية رخيصة ذات إطار متكسر.

أحيانًا يصعد الطريق عند منحدر التل، وعلى سفح إحدى هذه التلال يرى هيكل حافلة محترقة، تقف على جانبها. يتذكر «نامي» عندما كان صغيرًا كان جده يأخذه أحيانًا في رحلة قصيرة خارج المدينة. لم يشغل باله يومًا بالماء: فعلى امتداد الطرق انتشرت عيون مائية، تصب فيها ينابيع الماء. وفوق كل عين وعاء معدني مربوط بجنزير. كانت تلك كلها أمورًا بديهية.الآن جفت كل العيون المائية بلا داع. وصارت أماكن الشرب خاوية، وتراكم فيها التراب.

التراب في كل مكان، ويتداعى من كل مكان. يغطي غصون الأشجار، وأفرع الحشائش، وأجنحة الخنافس. يظهر في مخاط «نامي» وفوق ساعديه. ينسل إلى حذائه من فجوات أليافه.

يرى من بعيد قرى الصيادين عند سفح الهضاب، قرى تبعد بمئات الأمتار عن سطح البحيرة المفعم بالزيت.

شقوق غائرة تمتد من القرى وحتى مياه البحيرة، وكأنها نِدَب كريهة بعد عملية جراحية حرجة في البطن. إن هبت رياح من البحيرة تحمل معها رائحة نتنة. يسير «نامي» طويلًا، وتظهر التقيحات على قدميه. وتمتلئ بالماء والدم تدرجيّا، ثم تنفجر، وتختفي في جلد حذائه. يعتاد السير في اليوم الثالث. الربيع على أشده. الحرارة أثناء النهار تتخطى الثلاثين، لكن الطقس أثناء الليل بارد. صار «نامي» فاقدًا للحس. يشعر بالبرد والحر، والألم، والجوع. تأتيه هذه المشاعر مكتومة وكأنها تصله عبر جوال بطاطس سميك. يلتفت حواليه بدلًا من أن ينام كي يشعر بالأمان من كل جانب قدر المستطاع، قابعًا وسط أحراش قصيرة، أو أسفل نتوء صخري. يعظم شعوره بالجوع فيأكل جبنًا مملحًا، وحبات بندق، وحبات مشمش مجففة أعطتها له السيدة العجوز. يتذكر وهو يرى أحد جداول الماء الذي ينبع من الغابة عندما كان يصطاد مع أصدقاءه أسماك السلمون من جدول ماء أسفل جبل «كولوس»؛ يقوس كفه، ثم يبحث بكل حرص عن مكان أسفل الأحجار عند الشاطئ. مرة

يحالفه الحظ فيمسك بسمكة أصغر من المعتاد ويطبق عليها بكفه. لكنه يرميها على الشاطئ، فتزحف السمكة وتلوى إلى أن تعود مجددًا إلى الشاطئ قبل أن يخرج «نامي» سكينًا صغيرًا، ويدسه في أضلع سمكة السردين.

يجد «نامي» عش سناجب في جذع إحدى الأشجار. فيشعل بجواره أوراقًا جافة. فتهرع السناجب بارتباك وهياج خارج العش، لتجده يقف متأهبًا بعصا في يده، فيضربها.

يشويها على العشاء في ركية نار صغيرة – الأخشاب نادرة، وبالكاد تكفي لشوي اللحم نصف شواء – يرى فوق البحيرة نارًا أكبر حجمًا. ألسنة نار عملاقة وسط انفجار ضخم على شكل دائرة. يلوك «نامي» اللحم في فمه وهو متعب، يتابع هذا العرض. يعرف من الأبراج العالية أنها مصفاة بترول، تقع خارج العاصمة. مستحيل! مستحيل أن يرى شيئًا يحدث في العاصمة هو على بعد مسيرة أسبوع منها.

يدقق نظره في سطح الماء، ثم يفهم الأمر: إنه خداع بصري. يرى، بفضل انعكاس الصورة، ما يحدث على بعد مئة وخمسين كيلومترًا أو أكثر: خراب، ودمار، نهاية العالم كما قال جده. العاصمة تحترق.

يسمع طقطقة ناره الصغيرة التي أشعلها، ويرى ألسنة اللهب تنتشر لتملأ نصف الفضاء. يشعر بالعرق على جسمه وهو يمضغ لحم طائر السنجاب.

****

يبدو له أن «بوروس» أصبحت في مرمى بصره. ومن خلفه صخرة «كولوس» تبدو له أصغر من حجمها. والأصغر منها مساكن الصيادين والروس. الطريق أضيق من المعتاد. يفرك عينيه وهو يظن أنه جاء إلى مدينة غير مدينته؛ هذه المدينة صغيرة، مدينة للأطفال. لكن قاعدة محطة الإرسال الفضائية فوق التل خارج المدينة مازالت قائمة. لا شك أنه في مدينته: لقد وصل «نامي» إلى «بوروس».

يهرول عندما اقترب من المدينة، لكن أبعادها كما هي. منذ أن غاب عن المدينة تقلصت البيوت، وقصرت المسافات، وتراجعت مياه البحيرة وبالكاد يراها. ظل «نامي» يتابعها باهتمام. يشعر أن البحيرة تراجعت مثلما يتراجع البحر قبيل ضربات تسونامي، وبعد قليل سيقضي على كل شيء. لكن سطح الماء يلمع من بعيد، واقفًا لا يتحرك. أساطيل سفن النقل المعطبة تمتد لتملأ الأفق، غارقة في طبقات الطين الجاف، والجِمال تستريح في ظلالها.

مصنع السمك مغلق، وبوابته الصدئة تتأرجح في الهواء ومن فوقها يافطة دعائية. نبتت في الفناء أشجار سكنتها الحشرات. فصول المدرسة خاوية على عروشها، طاولات الدراسة موجودة لكن المقاعد اختفت. السبورات معلقة من جهة واحدة. النوافذ مكسورة، ومتدلية من أطرها. أبواب الفصول عالقة لا يمكن فتحها.

بيوت الروس سكنها التراب. بلا نوافذ. قليل منها مازال عامرًا بسكانها. الشقق خالية حتى من بلاط

الحيطان. روليت صالة القمار المحبوبة كساه التراب، فلم يعد قابل للدوران.

يواصل «نامي» جولته، ثم يتوانى عندما يمرّ ببيت «ظاظا». بيت من طابقين تقشرت كسوته الخارجية. يجلس فوق الرصيف كما كان يفعل يومًا. يبصق في التراب وينتظر قدوم سيارة الروس العسكرية كي يمطرها بوابل من بندقيته الآلية. طوال فترة ما بعد الظهيرة لم يظهر في الشارع سوى امرأة واحدة تسير ومعها عنزة جرباء، وأطفال يحملون بعض المشتريات. يشعر «نامي» بقرصة في كفيه، فيفركها.

****

تعود «ظاظا» إلى بيتها في المساء. تحمل سلة بها بيض. لم تعد تضع شريطة في شعرها، بل وشاحًا أزرقًا داكنا. تعلق على كتفها حقيبة لامعة، تنبئ عن أنها امرأة بالغة. أشعة الشمس تسقط على ظهرها، فيرى «نامي» جسدها أسفل الفستان. مازالت فتاة نحيفة صبية رغم اختفاء المرونة من خطواتها. ينادي:

«ظاظا»!

تنظر إليه في دهشة، لكنها تبتسم بمجرد أن تتعرف عليه. تمد له يدها وكأنها تريد أن تلمسه، لكن على الفور تدفع بها جديلة شعر متمردة تحت غطاء الرأس. حبات البيض في السلة تتراقص. كل واحدة منها مغلفة في ورق جرائد.

«نامي»! متى وصلت؟

بالأمس، أقصد اليوم!

تضحك «ظاظا» على ما يبدو من ارتباكه. يقول بصوت متقطع:

كيف حالكِ يا «ظاظا»؟ كثيرًا... تعرفين أني...

أنا بخير يا "نامي"، أشكرك.

حسنًا!

أنا في عجلة من أمري يا "نامي".

يتساءل «نامي»، في عجلة من أمرها إلى أين؟ فكل شيء في «بوروس» يتم ببطء مثل ذبابة سقطت في العسل.

حسنًا! أراكِ غدًا؟

اختلست «ظاظا» نظرة على باب العمارة، ثم النافذة، وقالت:

لا أعرف.

كما تشائين.

أخذت «ظاظا» تستعيد توازنها بسلة البيض وهي تتكئ على خصرها الأيمن، وأضافت:

سأنصرف.

انتظري لحظة.

ماذا؟

لا أعرف، لكن انتظري قليلًا.

لكني مضطرة للانصراف.

يلاحظ «نامي» أن يديها ترتعشان، تمامًا كما كان يحدث من قبل كلما لمس مؤخرة عنقها أو خاصرتها. زمان.

مازالت لديك بثور.. على يديكِ.

نعم، تسوء الأمور كلما ازدادت البحيرة جفافًا.

مازالت فيها تلك السموم، صحيح؟

ترمقه «ظاظا» بنظرة محايدة، وهي تفرك معصمها.

تعال غدًا إلى محل الحلويات. حسنا؟

تهز «ظاظا» كتفيها. ثم تدس كتفها في باب البيت بصورة مازحة، مثل عنزات صغيرة وهي تدخل الحديقة. تحافظ على البيض فوق رأسها بطريقة خرقاء. مازالت طفلة، يقول «نامي» لنفسه، ومازال هو

الآخر يتعثر في الكلام أمامها مثل التلميذ. إنه أمر يدعو للسخرية.

****

يلتقي بوجوه مألوفة، تنظر إليه دون اهتمام، مثلما يفعل معه القرد ميمون، إنه خارج دائرة الاهتمام. يلقي التحية على مدرسته السابقة، فترمقه باندهاش وهي تحمل لفة كبيرة ملفوفة بشريط. يبدو أنها هدية. تلتفت إليه بعد بضعة خطوات، وتنادي:

«نامي»؟!

يبتسم لها، لكنه يكتشف بعد لحظة أن الكلام جف في حلقيهما، فينصرف كل منهما إلى طريقه.

تتسارع دقات قلبه وهو يرى البيت الذي تربى فيه. درابزين السلم مطلي بلون أزرق فاتح يبهر العين. وأمام مدخله مزهرية بها بعض الزهور، تعوق الدخول إليه. يقرر «نامي» أن يبول عليها بعد أن رآها إلى أن تلقى حتفها. يرى الأغطية في النافذة تتشمس، وعلى

حبل الغسيل ملابس أطفال. باب البيت مفتوح على مصراعيه. وصوت موسيقى إذاعية تصدع من داخل البيت.

يضع «نامي» حقيبة يده على كتفه الآخر، ويطرق الباب. لا أحد يجيب، فينتظر قليلًا ثم يدلف إلى الداخل. في غرفة الاستقبال آثار طلاء حديث. والطفل ذو الأيادي الثلاث يجلس أسفل طاولة يلهو بشيء ما لا يراه «نامي». يتطلع إلى «نامي»، ويبتسم. مهد طفل بجوار الحائط. مدير الجمعية رزق بطفل آخر بالتأكيد. زوجة المدير تقف بجواره الموقد، وتبتسم لنفسها. تبدو عليها السعادة وهو يراها من جانبها. يسعل «نامي»، فتنتفض المرأة. يقول «نامي»:

طاب يومكِ!

مرحبًا!

تجيبه المرأة، وتتحول الابتسامة إلى قلق يكسو وجهها.

اجلس، الحساء سيكون جاهزًا بعد قليل.

لديكما طفل آخر؟

تومئ المرأة، وهي تهز جبينها المكسو بالعرق.

مبروك!

تنظر المرأة إليه عابسة دون أن ترد.

ولد آخر؟

بنت.

هذا أمر جيد. أليس كذلك؟ قد أصبح لديكما الولد والبنت. صحيح؟

يسعى «نامي» إلى العثور في ذاكرته على كل التعبيرات التي سمعها من جدته.

نعم.

تتابع المرأة «نامي» بوجه خلا من أية تعبيرات، تراقبه وهو يقترب من المهد. طفلة صغيرة ذات شعر أجعد كثيف، وملامح ملائكية وبذراع واحد. ومكان الذراع الآخر كف به أصابع. يغلق نامي عينيه للحظات وهو يحبس أنفاسه.

تقول المرأة بصوت منخفض:

جنية البحيرة مازالت غاضبة.

وكيف لها ألا تغضب؟

يهمهم «نامي»، ثم يجلس عند الطاولة، ويضع يديه فوقها. تقول المرأة:

إنه حساء الكرنب.

يهز «نامي» رأسه. يجذبه الطفل الجالس تحت الطاولة ذو الأيادي الثلاث من سرواله، ويضع فيه عصي. «نامي» ينحني، وينهر الطفل باهتياج، فيصرخ الطفل خوفًا وسعادة. بعد لحظات يجده «نامي» في

حجره. يهذر الطفل بكلام غير مفهوم. رقبته متسخة. يرفع «نامي» رأسه، يغلق عينيه. يستنشق عبق البيت القديم. صدع في الأرضية كانت الثعابين تخرج منه، وكانت جدته تطعمها بحليب في الطبق. اختفى الصدع. فوق الحائط صورة فوتوغرافية لمدير الجمعية بصحبة أسرته. وفي صورة أخرى وهو شاب صغير، يتكئ على بندقية صيد، وقدمه فوق شيء كبير موبر يظهر في الصورة القديمة على شكل بقعة كثيرة النقط. الإذاعة تبث موسيقى شعبية تقليدية، يعزف أحدهم على آلة الدوتار، ومطرب بائس يغني بصوت عالٍ، بأنه يرغب في أن يقفز من على ظهر حصانه من فوق صخرة لأنه حبيبته تتدلل عليه. «نامي» في غاية الإرهاق. لديه رغبة في أن يضع رأسه على الطاولة، ويستسلم للنوم. الصبي الجالس في حجره لا يكف عن الحركة، ويدق على الطاولة. أمه تنهره، ثم تمد طبق الحساء إلى «نامي».

«نامي» ينزل الطفل من حجره متشنجًا، ويشرع في تناول الحساء. مذاقه جيد.

كيف هو أكل زوجتي؟

يأتيه الصوت من وراء ظهره. ها هو المدير عائد إلى البيت لتناول الغذاء، يرمق «نامي» بعينين مواربتين. يتأمل عضلات ظهره وذراعيه، وأول وبوادر شعر أبيض في رأس «نامي»، وجعدة بين حاجبيه. ثم يقرر الحديث بلهجة لا تخلو من مرح.

طاهية ماهرة، أليس كذلك؟

لكن أمي تطهو أفضل منها.

يجيبه «نامي». تتجمد ملامح وجه المدير. لكنه ليس واثقًا مما سمعه.

بجدا! هل لديكَ أم؟

تخيل! لم تكن تعرف أن لي أم، صحيح؟

يجيبه المدير:

لم أكن أعرف. طوال الوقت وأنا أظن أن دبًا سيبيريًا هو الذي لفظك من مؤخرته.

أترى! لكنه لفظني على نحو جيد، أليس كذلك؟ لدي كل ما أحتاجه. يدان وقدمان.

يهجم عليه المدير، لكن «نامي» مستعد له، يرفع المقعد في وجهه. فيصطدم بصدره، ويدفعه إلى الخلف وهو يئن من الألم.

ألم يخبرك أحد أنك عليك ألا تلد أطفالًا أيها المدير؟ لماذا لم يخصك طبيب المواشي في جمعيتك؟ ألم يكن من الأفضل أن تدلك لكَ زوجتك الشمطاء قضيبك بيدها أفضل من هذا؟

ثم ينظر «نامي» إلى زوجته نظرة اعتذار. يتقدم منه المدير لكنه يتعثر ويترنح.

كف عن هذا! لم تعد قادرًا عليه!

يقول له «نامي» بضجر، ثم يعود لتناول الحساء. زوجة المدير واقفة، وهي تغطي فمها بالمئزر. يحتمي بها طفلها ذو الأيادي الثلاث. «نامي» يأكل، ويضرب الملعقة بالطبق، بينما المدير يستند على الطاولة، ويلتقط أنفاسه بصعوبة.

تقول زوجة المدير، بعدما صار الصمت لا يحتمل:

سأعد لكَ الغرفة.

ثم تأخذ الطفل من يده، وتنصرف إلى غرفة الاستقبال.

****

يدعو «ظاظا» إلى محل الحلوى «ديك السكر»، حيث كان يشتري مع الأطفال في صغره مصاصة من السكر المحروق. على بابه ستارة من شرائح مطاطية ملوثة لِصدّ فيالق الذباب، لكن عبثًا. «ظاظا» تشرب البوظا؛ وهي مشروب من القمح يشربه الأطفال، والأمهات

حديثات الولادة لأنه يحتوي على كثير من الفيتامينات.

تقول «ظاظا» عرضًا:

لقد تزوجت «أليكس».

ينقبض «نامي» وهو عاجز عن أن يخفي دهشته. يحرك الملعقة بهوادة. الشاي أسود إلى درجة أنه لا يرى قاع الكوب.

ذلك الغبي؟

تهز «ظاظا» رأسها دون ملامح محددة:

نعم، إنه هو.

يتوقف «نامي» عن الكلام. ليته ينطق سريعًا بأي كلام، لكن الشعور بالإحراج يتصاعد لديهما في كل ثانية.

تواصل «ظاظا»:

لا أعرف إن كنت قادر على تخيل هذا الأمر. لكن لم يكن سهلًا لواحدة في موقفي أن تبحث عن وزج.

يجيبها «نامي» سريعًا:

واضح، أعرف. وأتفهم ما تقولينه.

لم يسألني "أليكس" عن شيء.

يقول «نامي» متعذرًا:

«ظاظا»! أنا لا ألومكِ على أي شيء.

يكتشف أن أظافره مندسة في كفيه. «أليكس» السمين ذو الشعر الأحمر!

تبتسم «ظاظا» بشكل تهكمي:

حسنًا، أنت رجل طيب.

وماذا كان في يدي أن أفعل.

لا أعرف. ألا تهرب؟

يمسك «نامي» وجهه بيده اليمنى، ويزفر في كفه بصوت مسموع. يصمت. يسمع أنفاس «ظاظا» الغاضبة. تضع «ظاظا» كلتا يديها فوق بطنها. يلاحظ «نامي» تحدب خفيف في مكان لم يكن كذلك من قبل. تلحظ «ظاظا» نظراته، فتبتسم ابتسامة باهتة من جديد.

نعم، هو كذلك. أنا حامل. من ذلك الغبي.

حسنًا، مبروك! بجد، أهنئكِ!

لا تتظاهر أكثر من اللازم! صحيح أن "أليكس" غبي، لكنه يحبني، ويهتم بي. ولن يتركنا.

راح «نامي» يدعو في سره بألا تنفجر «ظاظا» في البكاء. فلن يتمالك نفسه لو أنها بكت.

لكن «ظاظا» قوية. الآن تقبض على فكيها، وتظهر جعدتان واضحتان حول فمها. صفات تقليدية لأي امرأة قوية التقاها في حياته. إنها لن تبكي بهذه السهولة. طلب «نامي» طبقين من البقلاوة. التهم

وجبته على الفور، وعلقت بين أسانه قطعة بندق. بينما ظلت «ظاظا» تعبث في طبقها.

كلي، فأنت تطعمين جسدين.

تبتسم «ظاظا»، وتضع لقمة في فمها. البقلاوة غارقة في الشراب المحلى الذي يسيل فوق ذقنها. يبتسم «نامي»:

سيكون لكِ طفل. وستغنين له، وستحكين له حكاية الفرقة الذهبية النائمة في جبل «كولوس»، وستأتي لكي تنقذنا.

نعم، سأحكها له كل مساء.

حسنًا. وستحكين له عن جنية البحيرة.

تصمت «ظاظا» وهي تلوح الطعام في فمها بتركيز. تريد أن تقول ل «نامي» إن المجنون المستهتر سيحضر إلى العالم طفلًا ليعيش في «بوروس». لكنها بدلًا من ذلك تطلب منه أن يأكل. «ظاظا» تتصرف

وكأنها فتاة صغيرة مؤدبة، شأن كل أطفال «بوروس» الذين كانوا أهاليهم يأخذونهم إلى محل الحلويات «ديك السكر»؛ يبتزونهم بالحلوى طوال الوقت، وعندما يجلس الطفل أخيرًا فوق المقعد الصغير المغلف بالبلاستيك يكتشف أن ما يراه أمامه في الطبق لا يستحق أن يضعه في فمه.

أخيرًا تنطق «ظاظا» بعد أن فرغت من طعامها:

لا يمكننا أن نعيد الماضي، أنت تعرف.

يهز «نامي» كتفيه وهو يهمهم.

حَمَلْت. لا أعني وقتها إن كنت تسأل عما حدث. ولم أصب بأي مرض روسي لعين.

همم! أردت أن...

لكنكَ هربت.

أنا آسف يا "ظاظا". لقد أصبت بالذعر. كانوا يحملون البنادق الآلية، وطائشين.

أعرف. أطلق أحدهم النار على رأسه أثناء التدريب. بنفسه، تخيل!

"ظاظا"!

ابتسمت بتكلف، وقالت:

لم أنم بعدها ليلة واحدة. أردت أن ألقي نفسي في بئر الماء. لكن أمسكت بي عمتي «لامينا». وحبسوني في المخزن لعدة أسابيع كي لا أفعل شيئًا بنفسي. كانوا يقدمون لي حساء الخشخاش.

يا إلهي!

ثم توقفت بعدها عن التفكير في بئر الماء.

طأطأ «نامي» رأسه.

أين كنتُ أنتَ؟

يتنهد، ثم يخبط يده في الهواء، ويقول:

إنها حكاية طويلة.

أها!

حقيقي. سأخبرك بها يومًا ما.

بصدق؟

بصدق.

حسنًا.

حسنًا.

صاحت «ظاظا» فجأة بصوت عالٍ جعل ضيوف محل الحلويات يلتفتون إليها وهي تقول:

وهل كان الأمر يستحق ما فعلته؟ أخبرني! هل استحق الأمر أن ترحل؟

«نامي» صامت لا يتحدث. فتاة صغيرة في الثامنة تقريبًا تُرِي البائعة عند طاولة المناولة لعبتها: دمية تعمل بالمفتاح. عندما تدير مفتاح اللعبة تبدأ الدمية في الدوران، ويعلو صوت موسيقى بحيرة البجع. يتباطأ دوران اللعبة والصوت كلما تاهت أنفاسها. ينتبه «نامي» إلى أنه يحب «ظاظا»، وأن هذا لن يغيره أنها تنتظر طفلًا من ذلك الغبي «أليكس». إنه سعيد لأنه معها.

****

يبدو أني سأصب كأسًا آخر.

يقول المدير وهو يملأ الكأس. يداه ترتعشان، ويتمايل قليلًا على الطاولة. يقدم كأسًا ل «نامي»، وينقره بكأسه، فيسقط منه بعض الشراب فوق الأرض. يقول:

في ذكرى جدتكِ!

يجيبه «نامي»:

حسنًا! لولاها لم سكنت أنتَ في بيت جميل كهذا، ولبقيت في حظيرة الحيوانات التي كنت تسكنها، أليس كذلك؟

ثم يسكب كأس الفودكا في جوفه:

في ذكرى جدتيّ!

ماذا تريد؟ أنا قادر على تدميركِ لو أردت. لو اتفقت مع الرجال في الجمعية، ستكون غدًا مع جنية البحيرة.

بالطبع! مثل "شاهناز"؟ ذلك الشاب المريض الذي أعدمتموه، وأغرقتموه في البحيرة؟ ستفعلون معي مثلما فعلتم معه؟

ينتصب جذع المدير، ويجحظ بعينيه. يبدو وكأنه قد اختنق. بدأ الطفل في المهد يتحرك ويتذمر.

أين أسرة «شاهناز»؟ أين تسكن؟

خارج مدينة "بوروس".

يشير المدير بيده ناحية الغرب.

حيث مبنى إيواء الأقارب، وأحواض السفن الجافة. بعدها بمسافة، في بيت متداعي، أو ربما عُشة. هناك يعيش أبوه. ستعرفه من تلال النفايات.

ثم يتجشأ بصوت عالٍ، ويضيف:

لكنه رجل أخرق.

يهز «نامي» رأسه:

ابنك يبكي!

يضع سُرّة أغراضه فوق كتفه، ويخرج دون أن يودعه. يسمع الطفل يصرخ، وزوجة المدير تنزل مهرولة من الطابق العلوي، وتحمل الطفل من المهد، وتضمه إلى صدرها، وتلاعبه. ثم تركض خلف «نامي» عند عتبه البيت. تقول له على عجل:

كنت أعرف أمكَ.

يجيبها «نامي» بغير اكتراث:

صحيح؟

نعم، كانت معي في الفصل. كانت عيناها زرقاوان. كل الصبية كانوا يحبونها، وليس "شاهناز" وحده. كانت جميلة جدًا.

انتابت «نامي» رغبة في أن يصفعها على وجهها.

****

بدلًا من هذا يضرب قبضة يده في كفه الآخر، وينزل مسرعًا ناحية المرفأ. يسير فوق الطريق الاسفلتي، يمر بمحطة البنزين القديمة، ومبيت السفن إلى أن يصل مساكن الصيادين القديمة حيث مازالت بعض العشش قائمة. يلتفت حوله، فيرى «بوروس» في ضوء شمس الغروب. مدينة جميلة، بما فيها من فوضى في حي الغجر، ومساكن الروس المدمرة. سحب وردية تتجمع في الأفق. وها هو بعوض الصيف يطعنه أول طعنة.

****

رجل يجلس عند عتبه أحد البيوت، ينظف وعاء من القصدير بفرشاة أسنان. يرمق "نامي" من خلف نظارة سميكة. يرتدي سروالًا رياضيًا وقميصًا داخليًا. عيناه تلمعان ونظراته ساطعة. شعره أبيض، وعضلاته مفتولة، ولفحت الشمس ساعديه.

يلقي "نامي" عليه التحية، فيومئ له الرجل كي يجلس بجواره على سلم الدخول. يضع "نامي" رابطة ملابسه، ويجلس متكأ بظهره على حائط البيت المتقشر. يشعر أن التحية أرهقته تمامًا، وأنه عاجز عن نطق كلمة أخرى. فيلتزم الصمت.

يواصل الرجل عمله. وبعد أن انتهى من تلميع المزهرية، يأخذ ملاطًا من البرونز، ويصب عليه بضعة قطرات من عصير الليمون، ويواصل الصقل. يغلق "نامي" عينيه، ويجرب إن كانت الشمس قد تمكنت منه ولفحت جلده. ينبه فجأة إلى أنه قد غفا، فينتفض. الرجل يقدم له فنجان شاي.، فيشربه ساخنًا في جرعة واحدة تقريبًا. شاي ثقيل، ومحلي أكثر من العادة.

يهز الرجل يده اليمنى في الهواء، ويقول:

كُلّه من البحيرة. لقد أنقذت كل شيء. الأشياء الأعلى قيمة أحتفظ بها في الداخل. ألبومات الأفراح. نعم، لن تصدق! حتى صور الأفراح أنقذتها. الرسائل، وحافظات النقود. صناديق مرصعة بالعاج.

يضحك الرجل، ثم يصمت. بدأ الظلام يهبط على الأرض، ودرجة الحرارة تنخفض.

يقول الرجل وهو ينهض:

لنعد إلى الداخل.

يشعل مصباح الكيروسين في الداخل. ثم يحضر قطعة خبز من خزانة الطعام، وطبقًا به زبد، وبصلتين. «نامي» يمضغ الطعام على مهل، ويغلبه النعاس من جديد. يشير الرجل إلى السرير، ويطلب منه أن يستلقي في هدوء. إنه سرير ابنه.

لهب مصباح الكيروسين يرتعش، ويحرك ظله. «نامي» يسقط فوق سرير نام فيه من قبله أبوه الذي هو من صلبه. وقبل أن ينتبه إلى هذا غشيه النوم.

****

يستيقظ في الصباح وهو يشعر بضيق في التنفس. يحاول التقاط أنفاسه، ثم يكتشف أن قطًا كبيرًا أصهب جاثم على صدره. بحركة واحدة سريعة يدفعه من فوقه، ثم يعتدل جالسًا فوق السرير. بعدها يدرك أين هو. يشتم رائحة بيت قديم وعتيق، رائحة معادن وفازلين. الرجل يجلس عند الطاولة، ويقرأ بصوت عالٍ. يرتدي قميصًا مهترئًا لكنه نظيف، وسروالًا أسود.

أَرْضُ زَبُولُون وَأَرْضُ نَفْتَالِيم، طَرِيقُ الْبَحْر عَبْرَ الأُرْدُنِ، جَلِيلِ الأُمَم. الشّعْبُ الجَالِسُ في ظُلْمَة أَبْصَرَ نُورًا عَظِيمًا. وَالجَالِسُونَ فِي كَوْرَةِ المَوْتِ وَظِلاَلِه أَشْرَقَ عَلَيْهِم نُورٌ.

يقول بسعادة وهو يلتفت نحو «نامي»

إنه إنجيل متى.

يهم «نامي» واقفًا، ويمط جسده. مازال ينتبه إلى المكان الذي يقف فيه. الرجل يرمقه بنظره وادعة، دون أسئلة، ودون استفزاز.يقول «نامي».

أرسلني إلى هنا مدير الجمعية الذي يسكن الآن بيتنا.

خرجت الكلمات منه باردة وكأنها لا تخصه، وليس هو قائلها.

أمي اسمها ماريا أننا، وهذا يعني أني حفيدكَ.

يخلع الرجل نظارته، وينظفها بكل هدوء في قميصه فوق بطنه، ثم يقول:

هناكَ خطأ. ليس لي أية أحفاد. ولا حتى أولاد، ولا زوجة، ولا أقارب. صديق الوحيد هو الرب يسوع المسيح.

يهز «نامي» كتفيه. يضرب راحته بقبضة يده، ثم ينصرف إلى خارج البيت. علت الشمس في السماء، لكن ظلالها مازالت ممتدة، والهواء بارد. لماذا لم يدهشه أن يلتقي في نهاية رحلته بهذا المجذوب؟ لم يكن من المفترض أن يحدث هذا.

يخرج الرجل خلف «نامي»، ويجلس فوق عتبة البيت، يتبعه القط الأحمر، ويقفز في حجره. يدس الرجل يده في فروة القط الطويلة، ويلاعبه برقة.

يقول له بنغمة تصالحية:

أنت لست حفيدي. كان عندي ولد واحد، ومات طاهرًا كالملاك. يمكنكَ أن تقول في أمك ما شئت لكنها لم تكن عذراء وقت أن حدث هذا.

«نامي» صامت، شارد في الخواء. الماء لا يظهر إلا عندما تنعكس على سطحه أشعة شمس الصباح الباهتة.

تلك الفتاة كانت على شفا الموت. أنا لا ألومها على ما فعلته. اللّه وحده الذي دفعها لتفعل ما فعلت. وكيف سيتصرف أي منا لو كان في مكانها؟ على الأرجح أنها كانت في ورطة، ولم تعرف كيف تنجو منها. من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر.

أمسك «نامي» درابزين السلم وهو يرى أن قدميه ترتعشان، وكأنه مريض.

كان «شاهناز» ولد طيب. يحسب أسرع من مُدَرّسِه. كان طلعة، يرتب لي كل شيء في الورشة، كل حسب مقاسه. كان يرص كل شيء - المطرقة، والمسامير، وحتى بكرات الخيط - كان يضع كل شيء في مكانه. لم يحدث أن خرج مسمار واحد عن مكانه.

ابتسم الرجل وأضاف:

كانت أمه تغني له كلما خلد للنوم. منذ أن كان صغيرًا وحتى بلغ السابعة عشرة. كانت دائمًا تغني له أغنيات ثلاثا لا تغيرها، ثم يستسلم للنوم بعدها. كان أحيانًا

يصاب بنوبات جنون. لم يختلط بغيره من الأطفال، لكنه لم يؤذ أحدًا في حياته أي إنسان. وكان يناديني يا بابا.

يضيف بصوت هادئ وهو يمسد القط:

جاؤوا إلى البيت ذات مساء. وكنا في شهر يناير. الظلام يهبط مبكرًا، حوالي السابعة. يتقدمهم مدير الجمعية. جاؤوا كلهم، الشامان، وجدك، وكل كبار البلدة برفقة زوجاتهم. صاحوا كلهم في صوت واحد: أعطنا هذا الحقير! لم يدرِ أحدنا ما الأمر، لكن البيت امتلأ بهم خلال دقائق. أخرجوا «شاهناز» مذعورًا من سريره، وقوائمه ترجف. لكَ أن تتخيل كيف كان. آه. يا إلهي! راحت زوجتي تصرخ. وهجمت عليهم وهي تخلع ملابسها عن جسدها. لكنها لم تتمكن من منعهم. حرّك الشامان شخشيخة في يده، وراح يكرر بأن شرًا محدقًا قد حدث، ويجب طرده. «شاهناز» يصرخ: بابا، بابا! لكني لم أقدر على فعل أي شيء. رأيتهم وهم يحملونه بعيدًا في فناء البيت، وهناك هجموا جميعًا عليه، وانهالوا عليه بالركلات. ثم اقتادوه خلف البيت،

وأحرقوه وهو يصرخ! لا يمر يوم دون أن أسمع صراخه هذا. لا يمر يوم دون أن أدعو الرحمن الرحيم بأن يحول بيني وبين هذا الصراخ. ثم أخذوا الصبي إلى البحيرة، وألقوه فيها، أدعو الله أن يكون قد فارق الحياة قبل أن يفعلوا.

كان الرجل هادئًا وكأنه يذكر مواعيد الحافلة. القط القابع في حجره يمد جسده ويقفز فوق عتبة البيت. ثم يتوجه منها بمجازاة جدار البيت للصيد أو في مغامرة شيقة. أخذ الرجل صامولة دون أن ينظر إليها، وبطريقة تلقائية نظفها من الشحوم بخرقة.

لم أقدر على أن أودعه. رحل بريئًا، وفي ريعان شبابهّ! كان ذنبًا كبيرًا أيها الفتى. أصلي من أجل كل أصحاب الذنوب كي يسعهم الله برحمته. لكنه كان ذنبًا كبيرًا. ابيضّ شعري خلال تلك الليلة. وأصيبت زوجتي بالجنون، وبعدها بأسبوع ذهبت وراء ابنها إلى البحيرة. بنفسها. وبقيت أنا هنا وحيدًا».

يهز الرجل يده في الهواء بطريقة خرقاء حتى تطايرت الصامولة الملوثة بالشحم من حِجْرِه وسقطت على الأرض. يميل «نامي» ليلتقطها، ويعطيها للرجل الذي ينظر إليها وهو شارد.

بعدها نضبت كل قواي، وكأن موجة مد وجزر عصفت بي، وفقدت كل ما في داخلي من قوة. سقطت على الأرض، ولم أقو على النهوض.

ثم غرق في الصمت مرة أخرى.

ألم تلاحظ أنك لا تسمع شيئًا هنا؟ من قبل كانت تتم عمليات مطاردة عندما يقوم الروس بإخافة الناس. أتتذكر تلك العروض العسكرية؟ يا لها من إزعاج! كنا نسمع صوت السفن من عند الميناء هي تزأر. ونفير مصنع الأسماك عند تغيير الورديات. كانت الجِمال تهدر، والحمير تنهق، وصوت الإذاعة العامة يصدح بالأغاني الوطنية! كانت أيام. لا يوجد الآن سوى صمت، وكأن كل هذا قد انقرض.

يجيب «نامي» وهو يلوك عشبًا في فمه:

هذا يعجبني!

قبل سنوات كان الغطاسون الروس يبحثون عن غواصة غارقة. كنت أذهب لمتابعتهم، وفجأة فكرت في الأمر. علموني الغطس مقابل بضعة زجاجات فودكا، وتركو لي بدلة الغطس وأدوات الغطس هذه. ظننت أني سأعثر على "شاهناز" في البحيرة، فأحمله وأعود به إلى البيت. ولو بقيت أغطس طويلًا فسألتقي به. جنية البحيرة لن تسعد بمن جاؤوها تحت الماء في موعد غير مناسب لأسباب جائرة. وبالتأكيد سترغب في أن تعيده.

لكن سبع عشر عامًا مرت على ما حدث.

سأظل أبحث عن ابني ما دمت حيّا.

إنه جنون.

أعرف أنه لقي حتفه منذ سنوات طويلة. لكن لا أريد أن يظل وحده تحت الماء. أريد أن يعرف أني مازلت أبحث عنه.

لهذا تعثر على كل هذه الأشياء.

نعم. عندما أفتش في الطين يتطاير، فلا أر شيئًا على الإطلاق. وعندما أعثر على شيء ما، شيء شخصي، أجد أن الأمر يستحق. طاقم شطرنج، لوح شطرنج مُرصّع. بقايا خف مطرز. مشط تصفيف مطعم بعرق اللؤلؤ. غطاء كراسة مدرسية. لو وجدت على تلك الأشياء اسم صاحبها الذي أعرفه أعيدها إليه. الدمية أعيدها للطفلة صاحبتها التي أصبحت اليوم كبيرة بعد أن فقدتها منذ عشر سنوات. تشكرني وكأنني أحضرت لها سبيكة ذهبية. أحيانًا أجد أشياءً لأناس ماتوا. فأعيدها لخَلَفِهم. بعضهم يبكي من التأثر، والبعض الآخر يتخلص من تلك القطعة التافهة النتنة بمجرد أن أنصرف.

وماذا عن الجثث؟ هل عثرت على إحداها يومًا؟

يهز الرجل كتفيه:

لا، لم أعثر بعد. لكني وجدت أسماك لم أر مثلها في حياتي. رأيت الدلفين الأبيض ذي الخمسة أمتار. وأسماك مضيئة دقيقة. متعت بها ناظري. لكن هذا حدث منذ زمن بعيد.

«نامي» صامت. القط الأصهب يتمسح بسرواله، فيدفعه دفعة خفيفة بقدمه.

يقول الرجل:

هل سنأكل شيئًا؟

لِم أنتَ مهتم بي؟

يلتفت الرجل إليه، ويرمقه وكأنه لم يفهم السؤال.

لماذا أهتم بكَ؟ أنا أحتاج إلى هذا أيها الشاب. فضلًا عن هذا لا يوجد عندي سوى خبز وبصل.

ومن هو أبوه؟ يسأل «نامي»، فيجيبه الرجل بأن بعض الأبواب من الأفضل أن تظل مغلقة. لكن «نامي» يصيح ويطلب منه أن يتوقف عن هذا الكلام. فهو رجل بالغ، ويريد أن يعرف دم من يسري في عروقه.

أعرف. «شاهناز» كان متيمًا بأمكَ. كان يتبعها في كل خطوة تخطوها. كانت جميلة، أجمل بنات «بوروس» اللواتي كن في عمرها، في السابعة عشر. كان يعرف أنها تلتقي سرًا بجندي روسي. أو ببعض الروس في معسكرهم.

معسكر الروس؟

لا أعرف أيها الولد. كتب "شاهناز" هذا في يومياته. وبأنه رآها وهي تقابلهم في الغابة. استمر هذا الأمر طويلًا، وحزن بسببه شأن أي شاب متيم بفتاة.

لا.

نعم. أنا لا أفهمكَ. كف عن التفكير في الأمر.

لن أكف.

«نامي» ينطلق، ويلصقه بحائط بيته، ويضغط عليه، ويضرب صدره برأسه. يلهث الرجل العجوز. ويمسك «نامي» برابطة عنق، ويظل يشدها. لكنه يحتضنه بعد أن رأى «نامي» قد توقف عن الهجوم. يظلان متعانقين، لنصف دقيقة، أو دقيقة. يخبره الرجل أنه ذاهب لإعداد البيض.

****

يصنع بيضًا مقليًا، ومعه خبز مُحمّص. يتناولان الفطور في صمت عند عتبة الباب. يغسل بعدها الرجل الآنية، ويشرع في طي بدلة الغطس. «نامي» يجلس في ضجر ويديم النظر إلى البحيرة. يقول بعدها إنه يود أن يذهب هو أيضًا، أن يذهب لتعلم الغطس كي يبحث معه عن «شاهناز» وعن كل تلك الأشياء الضائعة. كي يرى بأم عينيه تلك الجنية اللعينة. يشير الرجل إلى بدلة الغطس المعلقة فوق أحد أعمدة تهوية الأغطية.

يضع «نامي» يده على بطنه؛ لطيف أن يشعر الإنسان بالشبع مرة أخرى. يحاول أن يجد في نفسه شعورًا أعمق من هذا فلا يجد أية بقايا لمشاعر. ليس هناك سوى فجوة طويلة خاوية، حفرها حيوان بريّ يومًا ما. وترك آثاره في كل من أحبهم، وبقي هو بلا أي شيء.

يقول فجأة وهو يخلع حذاءه كي يسكب منه الرمل.

أعرف جيدًا أنه لا وجود لجنية البحيرة.

ينظر الرجل إليه في هدوء، ثم يرفس الغطاء عن الدراجة، ويقول بإلحاح:

هيا تعال! اجلس!

لا وجود لجنية البحيرة بالتأكيد. ربما كانت يومًا ما. لكن هذه البالوعة لا يسكنها سوى السم والجثث والنفايات.

هل ستعود للثرثرة من جديد؟ أنا ذاهب؟

يجيبه الرجل، ثم يشعل محرك الدراجة.

****

تحملهما الدراجة قريبًا من خط المَدّ. يستبدلان ملابسهما ببدلة الغطس، ويمشيان معًا في صمت فوق قاع البحيرة المتصدع، المفعم بالملح إلى أن يصلا سطح الماء. رياح خفيفة تدفع فوق سطح البحيرة زغبا شائكا صغيرا يحمل بذورًا من نباتات الصحراء. لكن «نامي» لا يسمع صوت احتكاكه بشاطئ البحيرة الصلب. إنه يضع فوق رأسه غطاء بدلة الغطس. لا يشم رائحة الماء بعد أن وضع قناع التنفس على وجهه. الماء بارد كالثلج، لكن «نامي» لا يشعر ببرودته من وراء بذلته.

تفتح له البحيرة ذراعيها، فيتقدم فيها.

## خالد البلتاجي

مترجم مصري وأستاذ اللغويات والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة، حاصل على دكتوراه في علوم اللغة التشيكية من جامعة تشالز ببراغ؛ ترجم العديد من الأعمال الأدبية والدراسات المتخصصة في علم المصريات والسياسة والاجتماع من اللغتين التشيكية والسلوفاكية، منها رواية "الخلود" للأديب التشيكي العالمي ميلان كونديرا، والبتاجي عضو اتحاد الكتاب المصري ونادي القلم الدولي.

..............................